إستميشن

هاني ثابت

الطبعة الأولى يناير ٢٠٢٠

الكتاب : إستميشن

المؤلف : هاني ثابت

تدقيق لغوي : هدير محمود

تصميم الغلاف : محمد دربالة

رقم إيداع : 2019 - 22104

ترقيم دولي : 978 - 977 - 85556 - 6 - 0

دار مسار للنشر و التوزيع

01020439639

massar.pub1@gmail.com

ش - حسن خطاب - قسم يوسف بيك
- الزقازيق - الشرقية

هاني ثابت

إستميشن

مسار
للنشر و التوزيع

إهداء

أتشرف بإهداء كتابى الأول لكل من وقف بجانبى لأكون .
واخص بالإهداء من وقفوا خلفي ليدفعونني للأمام
ابى.. امي.. زوجتي الحبيبة اسماء.. ابنائى كنزي وآدم.. اخي الصغير محمد محمود .

أدهم المنشاوي

(١)

عندما تفكر بأحدهم نهارًا فأنَّه سينتظرك بالمساء.

الليل حالك السواد الشارع خالي تمامًا من المارة وكنت أسير وحيدًا لا أعرف أين أذهب ولا أعرف كم الساعة، فأنا لا أحب اِرتداء الساعات واعتبرها مقيدة لي مثلها في ذلك مثل الكرافتة التي تشعرك بأن أحدهم يطبق على رقبتك، وبينما أنا شارد الذهن وإذا بي اتسمر مكاني لا أستطيع المُضيّ قدمًا أو حتَّى التنفس إنَّه أمامي لا أعرف من أين أتى؟ ولا أعرف ما يريده مني؟

كان ضخم الجثة شديد سواد اللون عيناه حمراوان شديد الاحمرار، أنفه مشدود لأعلى حتَّى أن أنيابه ظاهره يسقط من بينها لعابًا شديد اللزوجه يتساقط ببطء شديد السخونه يخرج من فمه وأنفه بخارًا يتصاعد لأعلى ظاهرًا من شدة سواد الليل يحفر الأرض بمخالبه كأنَّه ثور يستعد لمنازلة مصارع ثيران محترف ومتوعدًا بالانتقام منه لجميع الثيران.

كان صوتًا بداخلي يتحدث وكأنني أسمعه بأذني من شدة الهدوء وكان الصوت يحدثني قائلًا هل ما أراه حقيقيًّا؟ هل هذا كلب حقاً؟ لا أريد أن أصدق.

أنَّه ينظر لي بغضب ويتقدم نحوي ببطء حتَّى دنا مني حينها فقط أفقت من غفوتي. كان لا بد من اِتخاذ قرار سريع.

ولا إراديًّا وجدتني أجري بكل ما أوتيت من قوة، وكأنَّه كان يفكر مثلي فأصبح خلفي تمامًا يجري ورائي، وكأنَّه يريد أن يسابقني أكاد أسمع وقع مخالبه على الأرض وأشعر بأنفاسه الحارة تلاحقني. وكأنَّها مسابقة غير متكافئة نهائيًّا ولا بد من اِستخدام العقل.

وفجأة ظهر أمامى البيت الذي أسكنه ظللت أركض وهو يلاحقنى حتَّى أدركت باب البيت وإذا بي أتعثر بحجرٍ أمام باب البيت من أين أتى؟ ومن وضعه بطريقي؟

نهضت مسرعًا وأكملت دخلت البيت ظللت أركض نحو السلم وأنا لا أعلم ما هي الخطوة القادمة ظللت أصعد وأصعد وأشعر بأنفاسه خلفى لا أريد النظر خلفي حتَّى لا أتاخر في الركض الذي لا أعرف له نهاية لا أريد أن أكون كالغزالة الأسرع من الأسد الذي يلاحقها، ولكن ما يجعل الأسد يدركها أنَّها دائمة النظر خلفها وذلك يبطء من سرعتها.

ظهر لي هاجس الغزالة والأسد فجأة وأفقت منه فجأة حينما وجدت السلم انتهى وأصبحت على السطح وكنت أتمنى أن يصل

السلم للسماء؛ لأن الكلاب لا تصعد للسماء وانتهيت من أمنيتي لأجدني على سطح البيت فالتفت خلفي متمنيًا ألَّا أجده ولكنني وجدته وفي مواجهتي للمرة الثانية، ولكن أي مواجهه هذه؟ أنَّه حتمًا سيفتك بي في ثواني.

إنَّه ينظر في عيني وكأنَّه يختبر قوتي التي اِنهارت من أول نظرة من عينه التي تشع نارًا . ينهش الأرض بمخالبه يرفع أنفه عاليًا لتظهر أنيابه ويزيد تساقط لعابه اللزج الساخن.

ظللت أتراجع وهو يتقدم نحوي كنت في اِنتظار لحظه انقضاضه عليّ.

سوف أستسلم له سريعًا كيف لي بمواجهته؟، ظللت أتراجع حتَّى اِلتصق سور السطح بظهري حتَّى أنني شعرت بأن السور يدفعني نحو ذلك الوحش الذي يطلق عليه أفكأ كلب.

وقفت أنظر له وانتظر قراره وفجأة رجع الكلب نصف خطوة للخلف ولكنه ليس رجوعًا أنَّه قرار بالهجوم يسبقه رجوع صغير اِستعدادًا للقفز على فريسته التي هي وللأسف أنا.

أقل من لحظات ويكون في حضني ينهش لحمي محطمًا عظامي.

وفي رد فعل غير معلوم مصدره هل المخ أعطى إشارة للجسد، أم أن الجسد قرر النجاه بنفسة بالقفز ناحية السور وكان الوحش قرر هو الآخر القفز ولكن على فريسته.

أنني أرى نفسي أسقط.

الأرض تقترب بسرعة أغمضت عيني خوفًا وقبل اِرتطامي بالأرض فتحت عينى لأجدني نائمًا على سريري الهث وأتصبب عرقًا وأتمتم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

إذا فهو حلم والحمد لله.

كانت تناديني من خارج الغرفة. أدهم اِصحى يا حبيبي الساعة بقت سبعة. أنني أعرف هذا الصوت جيدًا. أنَّها أمي ذلك المنبه الذي يزن ما يقارب مائة كيلو من الحنان والحب.

(٢)

الحياة تستقيم لمن لا يبالي.

حياتي روتينية تمامًا فأنا أصحو من نومي مبكرًا أذهب لعملي الذي لا أطيقه أرتدي ملابسي التي قمت أنا بكيها.

عادا لأحلق ذقني صباحًا أخرج من حجرتي لأجد أمي تتكلم في التليفون أمَّا مع أختي الوحيدة والتي تعيش بإحدى دول الخليج مع زوجها وأولادها أو مع خالتي التي تسكن بإحدى المناطق الشعبية بالقاهرة القديمة.

ثلاثتهم وكالة أنباء متحركة يلوون ألسنتهم بالكلام في أي شيء وعادا أكون أنا محور أحاديثهم التي لا تنقطع صباحًا أو مساءً وعندما تراني تقول لي دي.

- أختك بتسلم عليك فأقول لها الله يسلمها وتكمل حديثها معي إنت نازل؟ لا إله إلَّا الله ولا تنتظر مني الرد عليها.
اركب سيارتي الصغيرة متوجهًا إلى عملي. السيارة تتحرك، وكأنَّها تعرف الطريق مثل حمار الفلاحين فى الأرياف
تتلوى السيارة يمينًا ويسارًا وتقف فجأة أمام باب حديدي ضخم يحيط به سور أسمنتي عالي، وأعلى السور أسلاك شائكة وقطع من زجاج مهشم مثبت بالأسمنت.
ينتبني شعور أنني أقف أمام باب معتقل كبير يسكنه أعتى المجرمين أعلى الباب معلق لافته من الصاج أكل الصدأ أطرافها مكتوب عليها: «مدرسة مصطفى كامل الإعدادية بنين».
كنت فيما مضى أقف أمامها حائرًا ومحدثًا نفسي مصطفى كامل ذلك الثائر الذي يكره الاستعمار كيف يطلق اِسمه على هذه المستعمرة المسماة مدرسة؟
عم سرحان ذلك الرجل الستيني يفتح الباب الحديدي بكل بساطة محدثًا صفيرًا عاليًا، وكان عم سرحان يتلاشى النظر في عيني لأنه كلما نظر في عيني أفضح ما بداخله وأحدثه بما يحدث به نفسه.
أتذكر آخر مرة نظرت في أم عينه شعرت باضطرابه نتيجة رجفه تملكت من أجفانه فقلت له:
- عم سرحان لو حد اشتكى من سندوتشات الكانتين النهارده هزعل منك اِرتبك قائلًا:

- حاضر يا أستاذ أدهم.

وعلمت فيما بعد بأنَّه قام بإعدام سندوتشات اللانشون، والتي كانت معدة للبيع بالكانتين؛ لأن طعم اللانشون أصبح متغيرًا .

أنني أعلم كم يكرهني هذا العجوز الجشع ....

تقودني قدماي إلى غرفة صغيرة جدًا معلق على بابها لافتة نحاسية صغيرة مكتوب عليها: « أ/ أدهم المنشاوي – الإخصائي الاجتماعي ومدير شئون الطلبة» أَنظر إليها وأضحك مال الخدمة الاجتماعية بشئون الطلبة؟

ولكني أتذكر يوم خروج الأستاذ صبري فواز على المعاش وكان مكتبه مجاور لمكتبي بنفس الغرفة، ورفضت المنطقة التعليمية تعيين مسئول عن شئون الطلبة بحجة ضغط المصروفات.

وحينها عرض عليّ الأستاذ صفوت مدير المدرسة أن أقوم بأعمال شئون الطلبة بجانب عملي، وكان شرطي الوحيد حينها أن يكون المكتب خاص بي وحدي.

وافق الأستاذ صفوت على مضضٍ.

وجدتها فرصة لأجعل من الغرفة الضيقة مكتبة خاصة بي أقضي فيها يومي منغمسًا وسط كتبي.

بعد انتهاء اليوم الروتينى اِذهب إلى البيت مسرعًا لأجد أمي ما زالت تتحدث في التليفون أشعر وكان التليفون أصبح جزءًا من وجهها.

أأكل سريعًا وأنام ساعتين وأصحو إنسان مختلف تمامًا وكأنني تبدلت أثناء النوم.

(٣)

أجلس وأمامي ثلاثتهم وأمامنا أوراق الكوتشينة يتم توزيعها بالتساوي.
منذ زمن بعيد اِعتدنا على التقابل بصفة شبه يومية في البداية كانت المقابلات للترفيه ثمَّ أصبحت إدمان وأخيرًا أمست هروبًا
أشعر أنني أكثرهم تميزًا لأنني سريع البديهه – ذكي - قوي الملاحظة - أحسن التوقع.
والأهم أنني أمتاز بقراءة لغة العيون والجسد وهي ملكة اِكتسبتها من كثرة القراءة وخصوصًا فى مجال علم النفس الذي أعشقه.
عندما يتم توزيع الورق أكن آخر من يرفع الورق بعد أن أتفحص عيونهم وأقرأ ما يخبئونه الملم أوراقي المبعثرة ثمَّ أختار أحدهم ليكون فريستي ونظل نضحك ونلعب.

إسماعيل شاب في منتصف العقد الثالث خفيف الظل سمين لدرجة الترهل أنيق المظهر يعشق الأكل رغم مرضه بالسكر لا يجلس إلا وأمامه طبق مقرمشات ومكسرات نظل نسخر منه

ولكنه أحبهم لقلبي، ولكن لماذا نسخر منه؟
هل لأنه متسامح، أم لأنه هو الآخر يسخر من نفسه؟
نسخر منه ويسخر هو من نفسه رغم أنَّه أنجحنا في الحياة.
فمنذ أن تخرجنا من الجامعة وتولى تجارة والده وأصبح من رجال المال والأعمال وتجار المجوهرات القليلين المشهورين.

- لو سمحت يا سمعه صب لي كأس.

- سمعه: أدهم إنت عارفني أنا ما بحبش الزفت ده لا بشربه، ولا بصبه لحد.

- أنا بسخرية: اه يا إسماعيلي نسيت حقك عليا صبلي إنت يا (كيفو).

- إسماعيل مرة أخرى موجهًا حديثه لي: إنت مش ناوي تبطل شرب بقى إنت مش وعدتني قبل كده؟

- أنا مش عاوز أبطل!

- إسماعيل محتدًا: إنت بتكدب على نفسك بص لنفسك في المرايا شكلك بقى عامل إزاي!

- ماله شكلي يا أستاذ إسماعيل بص إنت فى المرايا وشوف شكلك إنت عامل إزاي!

الباقى يتابع الحديث بنظرة ممزوجه بالاندهاش من سرعة تطور الحوار.

- إسماعيل وقد شعر بالإهانه من صديق طفولته: الله يسامحك

بس مش ده موضوعنا. إنت ليه يا أخي عاوز تموت نفسك!
- شعرت بأن كلماته ترن في عقلي قال كلماته بهدوء أحدث ضوضاء رهيب برأسي، وقد هدأت نبرة صوتي ووصلت لأقل درجاتها وكأنِّي أحدث نفسي عيني مصوبة نحو الكأس المملوء بيَدِيّ تجرعها دفعة واحدة:
- اه نفسي أموت بس عشان تموت لازم تكون جريء وأنا جبان.
- إسماعيل مصرًا على الضغط بدافع حبه لصديقه: أحمد ربنا إنت أحسن من غيرك.
- شعرت بالدماء تتدفق صاعدة نحو مخي أحدثت به انفجارًا كبركان غاضب لمْ أشعرْ بنفسي إلا أنا أضرب الترابيزة بكلتا يَدِيّ محدثًا صوتًا عاليًا تتطاير معه الأوراق على الأرض، وكذلك زجاجة الخمر ولمْ يلتفت إليها أحد وينتفض إسماعيل وكل ذلك لم يمنعني من مواصلة حديثي بنفس درجة الانفعال:
- لأ يا إسماعيل أنا مش أحسن من حد كل الناس أحسن مني.
ضربت الكرسي بقدمي وخطوت نحو الباب فتحته وخرجت وأغلقته خلفي بقوة لينتفض أصدقائى مرة أخرى ويقول أحدهم لإسماعيل:
- تقلت عليه يا إسماعيل المرة دي.
- إسماعيل: أنا بحبه وخايف عليه!
انصراف.

(٤)

كعادتى أذهب إليكِ أتحسس وأبكي كأنك كعبتى التي أحج إليها وأتعلق بأستارها ويأخذني الحنين فأبكي أو كأنك حائط مبكاى وأنا اليهودي العاشق أو كأنَّك صورة العذراء وأنا العابد في خشوع أوقد الشموع.

فالحب لا يسأل عن خانة الديانة.

هل تسمعين نجواي، هل يصلك دعائي اِشتقت إليكِ فهل اِشتقتى إليّ، وهل يشتاق من هم تحت التراب؟

اِعتدت منذ زمن ليس ببعيد أن أذهب إلى المقابر أزورهم وأقرأ على روحهما الفاتحة.

أَسترجع شريط ذكرياتي وآلامي حقيقةً أنني لمْ أكنْ أَسترجعه ولكنه كان يمر أمامي محدثًا ثقوب بقلبي.

كنت كلما زرتهم ينتابني الكثير من تأنيب الضمير.

كنت دائمًا أشعر بالخزي والعار، وخصوصًا عندما أتذكر أنني كنت السبب في فقدانهم.

كان مجرد تذكر الأحداث يصيبني بالإجهاد يجعلني أتعرق أنفاسي تلهث.

وبمجرد دخولي حوش المدافن يأتي خلفي التربي يرش الماء البارد بيديه على المدفن ويسقى شجر الصبار.
ولكن لماذا الصبار هل ليتذكر أهل المتوفى أن هناك ما هو أمر من فراق الأحبة، ولكن ليس هناك أَمَر من فراق أعز شخصيين إلى قلبي ابنتي الحبيبة وزوجتي العزيزة والتي عشقتها من لحظة لقائنا الأول عندما، ووقعت عيناي عليها لأول مرة اِنجذبت إليها عشقتها تمنيتها.
يقطع حبل تفكيرى الزائر الثاني للمدافن الرجل الذي يأتي دائمًا بعد التربي.
رجل يرتدي جلباب فضفاض يفترش الأرض يتلوا من كتاب الله العزيز يبتغي بعض الصدقات من أهل المتوفي.
وعندما ينتهي كلا منهم من مهمته ينصرف أغلق باب المدافن خلفهم واختلى بمن أحب.
يااااه لو بإمكاننا إعادة الحياة للخلف بضع سنوات لتمكنا من تغيير أشياء كثيرة.
لكنا حاولنا الاستمتاع بأشياء كانت فِي حوزتنا ولمْ نشعرْ بجمالها سوى حين فقدناها.
فعلًا لقد وهبنا الله من النعم الكثير ولكنه سبحانه اِبتلانا بمرض حب الأشياء التي لا نمتلكها وإهمال ما بين أيدينا.
لو عاد بي العمر لما تركتهم يرحلوا قبل أن أحاول إسعادهم في كل

دقيقة تمر بإعمارنا.
ولكن سنة الحياة أن الأشياء التي ترحل لا تعود.
إنَّه اختبار غير قابل للإعادة.
أجلس أمامهم وأظل أتكلم وأحكي وأصمت في انتظار الرد وكأنني أسمعه يرن في أذني فأضحك واسترجع ذكرياتي أتمنى رجوعهما ولو للحظة أملئ سمعي وبصري منهما يأخذني الحنين والوقت أيضًا ولا أفيق إلَّا على صوت التربي ينبهني أن الليل قد حل، ولا بد لي من الانصراف لأن الأموات في حاجة أيضًا للراحة اِنصرف واترك كل ما لديّ بالمدافن.

(٥)

أشعر دائمًا بأن عقلي يسكن جسد رجل غيري أو أن جسدي يستعمل عقل آخر غير الذي يحتل رأسي لماذا؟ لا أعرف!
أفضل أوقاتي تلك التي أقضيها في مكتبتي الصغيرة بالمدرسة، فقد قمت بجعلها مكتبة كبيرة وشاملة فأنا أعشق القراءة في شتى المجالات ولكن تستهويني كتب علم النفس أكثر من غيرها.
فما أن أبدأ في قراءة كتاب خاص بعلم النفس يصدر مخي إشارات تعزلني عن العالم من حولي ولا أشعر بنفسي، ولكن اليوم بداية مشرقة أشعر براحة نفسية، وهدوء نفسي.

وقفت أمام مكتبتي أحاول اِنتقاء كتاب لأبدأ به يومي.
في أول الأمر اِنتويت قراءة رواية كلاسيكية تتناسب مع حالتي المزاجية ولكني وجدت يديّ وبدون إرادتي اِنتقت كتاب عن علم النفس.
جلست على مكتبي المتواضع المتهالك ناديت على عم عبد المعطي ذلك الرجل العجوز المسئول عن نظافة المكاتب بالمدرسة وإعداد الشاي للسادة المدرسين، ولكني أكن له حب خاص فهو رجل بسيط ودائم الابتسام ومن شدة حبي له اِخترته مساعدًا لي فهو يجيد القراءة والكتابة.
ناديته راجيًا أن يحضر لي كوبًا من القهوة أخذت نفسًا عميقًا كمن يستعد للغطس في الماء وبعد النفس فتحت الكتاب.
بدأت القراءة مر وقت طويل أو قصير لا أعلم ولكنني كنت على وشك الانتهاء من قراءة الكتاب إذن مر وقت طويل، وكان من عاداتي عندما اِندمج في القراءة اِنفصل عن العالم المحيط بي اِنعزل عنه أشعر وكأنني أذوب بين الحروف.
وفي شدة اِندماجي شممت رائحة لمْ أشمها من وقت طويل إنَّه البرفان المفضل لحبيبتي وزوجتي وأم طفلتي «مها» فرفعت عيني لأجدها أمامي هيئتها ملامحها ضحكتها حتَّى ملابسها الفضفاضة حجابها الذي يتدلي أمامها يغطي نصف جسدها العلوي ويكشف تمام البدر في وجهها.

نظرت في عينها ونسيت.
نسيت أين أنا؟ من أنا؟ من أتى بي إلى هنا؟
- أنا عائشة.
حتَّى صوتها ملائكي نظرت إليها ولمْ أنطق بكلمة كانت تنظر إلى وتتكلم.
فهي من نوعية البشر التي تنظر في أم عينيك عند محادثتك مخترقًا حواسك مشعلًا للنار بداخلك نار تأكل قلبك مخيلتك وحتَّى أفكارك.
قالت، وقالت ثمَّ قالت وأنا أنظر إليها:
فهمت فيما فهمت من كلامها أنَّها تساعد الطلبة الغير قادرين على دفع المصاريف المدرسية كنوع من أنواع التكافل الاجتماعي، ومساعدة الغير قادرين، وحيث أنني غير ملم بهذه الإجراءات ناديت عم عبد المعطي ليرى ماذا تطلب؟، ويساعدها والحقيقة كان الرجل يمارس مهامه وكأنَّه متمرس فيها ظل يسألها وهي تجيب على أسئلته موجهه نظراتها الثاقبة إليه.
حقيقتا كنت مشفق على الرجل المسكين كيف تستطيع حصونه صامدة أمام القذائف التي تخرج من عيونها.
ظللت أتابعهما منتظرًا اللحظة التي يسقط فيها الرجل صريع نظراتها برائتها رقتها صوتها الهامس، ولكنني فوجئت به وكأنه لا يشعر بها أساسًا.

فعلمت أنني وحدي الذي أراها.
أنهى الرجل مهمته شاكرًا الآنسة وانصرف.
نظرت ناحيتي واقتربت مني حتَّى دنت من مكتبتي مدت يدها إلى الكتاب الراقد أمامي قرأت عنوانه وسألتني وعيونها تملؤها الدهشة.
– يااااه حضرتك تعرف أنا بدور على الكتاب ده بقالي أد إيه؟ حضرتك جبته منين؟
استفقت من غيبوبتي المؤقتة وكأن جسدي استدعى عقلي من العالم الآخر للحضور والمثول أمامها.
قلت موجهًا كلامي إليها ضاغطًا على مخارج ألفاظي لأحتفظ بهدوئي أمامها.
- كنت موصى كذا واحد من سور الأزبكية لو وقع في أيديهم يتصلوا بيه.
كانت تسمعني وعيناها تطالع مكتبتي الصغيرة القابعة خلف رأسي ثمَّ أخذت تقلب في الكتب الكتاب تلو الآخر قالت، والدهشة ما زالت تعلو ملامحها.
- حضرتك بتقرأ في كل المجالات تقريبًا بس أنا ملاحظة إن أكثر مجال عندك هو علم النفس البشري صح؟
- ابتسمت قائلًا صح إنتِ لماحة جدًا يا آنسة عائشة كنت متعمد أن أنطق كلمة آنسة ببطء لأحظ رده فعلها.

لاحظت حمرة خجل تعلو وجهها قائلة شكرًا. مرت لحظات من الصمت والهدوء كسرتها هي قائلة:

- تعرف حضرتك إني بحضر ماجستير في علم النفس.

أحسست أن الله يمنحني فرصة لاحقتها بجد؟ يبقى الكتاب ده هدية مني ليكِ.

- هي: شكرًا بس أنا هقرأه وأعيده لأني هحتاج أستعير منك كتب تانية كتير.

عندما همت بالانصراف أحسست أن اللحظات الحلوة لا تبقى في حقيقتها كثيرًا ولكنها تخلد في ذكرياتنا أكثر

مكثت أمامي وقت قليل، ولكنه كان كفيل بترك بصمات كبيرة.

من القائل أن الانطباعات الأولى تدوم.

أنها لا تدوم بل تحفر!

اِنصرفت من أمامي ولكنها أخذت معها شيء وتركت آخر.

أخذت معها عقلي وتفكيري جعلت ذكرياتي تلتهب مرة أخرى.

وتركت اِنطباعا من المستحيل زواله.

(٦)

في المساء وكالعادة كنت على موعد مع أصدقائى للعب الاستميشن ولكنني على غير العادة كنت غير ميال للعب كنت أريدها لعبة

أخرى.
لعبة أعصاب لعبة قراءة لغة العيون والجسد (٦٠٪ من الحديث بين البشر يتم بصورة غير مباشرة عن طريق إشارات وإيماءات وإيحاءات).
اِجتمعنا حول الترابيزة المعدة دائمًا للعب الاستميشن في شقة سامح أو سمسم كما يحلو له ولنا مناداته.
سامح مولع بالعلاقات النسائية يرى في النساء ما لا يراه غيره أو ذلك ما يعتقد فالمرأة بالنسبة له أنثى فقط لا تمتلك سوى جسد، ولكنه أفضل من يعامل النساء ثمَّ أن عمله في إحدى البنوك الأجنبية يتيح له الالتقاء بالنوعية المفضلة لديه من النساء.
- كان لا بد من سؤال يلفت انتباههم لا تمكن من قراءة أفكارهم عن طريق لغة العيون.
بقولكم إيه يا شباب هوه ممكن حد يحب واحدة من أول نظرة (سؤال كان له صدى في نفسي).
نظري توجه تلقائيًا صوب سمسم لماذا؟ لا أعلم ولكن لا بأس فمن أفضل منه ليتكلم عن النساء وعن الحب؟
اِتسعت عيناه وبرقت، وكأنه كان ينتظر سؤالي أو أن الكلام عن النساء أكثر حديث يستهويه قذف الورق جانبًا.
وقال وهو يصب لنفسه كأسًا وبدون تفكير وكان الكلام يخرج من فمه وكأنَّه يتساقط.

- يابني هو الحب بييجي غير من أول نظرة؟
أول ما عينك تقع على الست من دول لازم دماغك تتكهرب كل حته في جسمك تتحرك يحصل صراع بين جسمك ومخك كل حته فيك عاوزاها ومخك مش عاوز يستعجل أصل المخ ده داء.
استفزني كلامه لأسأله:
- طب أكتر حاجة بتشدك للست إيه؟
- تصدقني لو قلتلك كل حاجة من أول مشيتها اللي بتدل أد إيه إنها أنثى مرورًا بضحكتها إلى بتحرك فيك كل حاجة، ونظرة عنيها إلى بتشيلك من الأرض وترفعك للسما رقتها جرائتها.
من الآخر الست عبارة عن جسم جميل كل حاجة فيه جميلة.
كان يتحدث ويديه مفتوحتين وعيناه أيضا وهذا دليل على الصدق بينما سمعه كان يقرص أنفه وهو يغمض عينيه مِمَّا يدل طبقًا للغة الجسد تقييم سلبي لما يقال.
تناول سمعه الحديث من سمسم موجهًا حديثه إليه.
- إنت إنسان شهواني يفرق إيه بينك بين الحيوانات.
تنحصر اِهتمامات سمعه في أشياء ثلاث (الأكل – محل وورشة الذهب اللذان ورثهما عن والده – زوجته).
رغم اِمتلاك سمعه لجسد سمين لدرجة الترهل، ولكن داخل هذا الجسد ومن بين الدهون يرقد قلب طفل مليء بالرومانسية
- الحب من أول نظرة شيء أكيد لحظة تخطفك. لما تشوفها

تتمنى الزمن يقف!
تحس بمشاعرك بتتحرك، وهى مشلولة.
حد يكون له نفس اِهتماماتك يكملك يعني يبص في عينك يفهمك يريحك.
قبله تحس إنك نسر طاير في السما ومعاه تحس إنك عصفور محبوس جوة قلبه...
- يقاطعه سمسم، وهو يصب لنفسه كأس آخر يتجرعه دفعه واحدة ليلحق بالكلام قبل أن يتناوله منه أحد آخر كان يتكلم وكأنه يحادث نفسه.
- واحدة عجباني وأنا عاجبها إيه دخل الحسابات التانية بالموضوع ده يعني لازم مقدمات ونقعد نضحك على بعض باسم الحب وبعدين نتجوز عشان نوصل لنفس النتيجة وهي السرير.
يتدخل كريم الشهير ب(كيفو)، وهو يلف سيجارة بخليط من التبغ والحشيش بعد حرقة في ورقة سلوفان وفركها.
- ياعم حب إيه؟ ونسر إيه؟ وسرير إيه؟ ملعون أبو الحب على أبو الجواز على أبو إلى عايز يتجوز.
الست من دول يا مولانا لو ما سديتش اِحتياجاتها من كل شيء هتحس إنك ولا حاجة.
رغم فظاظة كلماته إلَّا أنه يظل صاحب الإجابات الباترة التي لا يستطيع أحد التحدث بعدها.

(كريم متزوج حديثًا، ولكنه فقير الحال يعمل صباحًا محاسب بإحدى الشركات الخاصة براتب لا يكفي بسد اِحتياجاته ولكي يستطيع تحمل أعباء حياته يعمل مساءً سائق تاكسي).

خرجت ببعض الملاحظات على أصدقاء طفولتي:

- سمسم صادق لا يخجل كعادته منطلق شهواني، ولكنَّه يعلم ما يريد.

- إسماعيل الرومانسي في ظاهره يمر بضائقه في علاقته بزوجته وخصوصًا علاقته الحميمية، وكان ذلك ظاهرًا من اِنفعاله المبالغ فيه من كلام سمسم ومحاولته تلاشى النظر في عيوننا وهو يتكلم مِمَّا يدل على الكذب.

- كيفو رجل واقعي غير حالم صاحب تجربة.

فاجئني سمعه وهو يمرر منديلًا على وجهه يمسح عرقه الذي أخذ يتصبب على وجهه من شدة الانفعال.

- وإنت يا عم أدهم رأيك إيه بقى؟

كان على الإجابة بدون كدب وبدون أن أصدم أحدهم.

- كلكم صح كل واحد اِتكلم في نقطة لكن لو جمعنا النقاط كلها هنلاقي الإجابة (إجابتي كانت موفقة. ظهر ذلك من التزامهم الصمت).

(٧)

عالمي ضيق.
عمل لا أطيقه.
بيت لا تسكنه سوى أمي وتليفونها الذي لا يغادر أذنها سوى ليستقر على الأُذن الأخرى.
أصدقائي الثلاثة إمَّا للعب أو الحديث.
قبر زوجتى وابنتب الحبيبتين.
فعليًّا لا أشعر بطمأنينة سوى في حضرة زوجتي
من يوم وفاتها وأنا أذهب لقبرها لأحكي لها أحداثي اليومية لمْ أستطعْ أن أخفي عنها شيئًا.
ولكنني لم أستطع البوح لها عن عائشة خوفاً على مشاعرها من الغيرة رغم أن ما شدني لعائشة الشبة الكبير بينهما ولكني شعرت أنني أخونها.
هل يشعر الأموات بخيانة الأحياء؟
كلا منا بداخله إنسان خائن.
ولكن أسوء أنواع الخيانة خيانة شخص متوفي.
لأنها تصبح خيانة للذكريات خيانة لمواقف لن تتكرر خيانة لشخص لن يستطيع خيانتك، ولو في مخيلته.
ولكنني لا أخونها أنني فقط أعجبت بعائشة بدون قصد أعجبت بها في غفلة من العقل والقلب.

ليتنا نستطيع التحكم بمشاعرنا كما نتحكم بألسنتنا.
لو كنت أستطيع فعل ذلك لقفلت قلبي بالمتاريس على حبيبتي وابنتي.

(٨)

أفضل أوقاتنا تلك التي نقضيها في صحبة أنفسنا.
لذلك دائمًا ما أضبط نفسي أجلس منفردًا منعزلًا على ضفاف النيل لا أشعر بما حولي، ولا بمن حولي لا يقطع حالة السرحان التي تنتابني صوت الباعة أو أبواق السيارات ولا همس العاشقين على أطراف نهر النيل.
أُذني يغشاها شمع يصمها وصوت الهدوء يملئ عقلي يعلو على أي صوت خارج جمجمتي يمر الزمن لا أشعر ولا أنتبه.
كأنني أصبحت قطعة وليس شخص.
قطعة صماء لا تشعر أو تفكر لا تتكلم أو تسمع.
فقط أتنفس عقلي يعمل ولكن عكس عقارب الساعة، أو عكس تفكير جميع الناس.
فالناس تفكر في ثلاثة أشياء أمَّا تتذكر الماضي أو تحلم بالمستقبل أو تنسج لنفسها خيوط الحلم.
أمَّا أنا في وحدتي مع النيل أفكر في اللاشيء.

أشعر أحيانًا أنني لا أفكر، عقلي يدور فقط تمامًا كالنائم.
صورة صفحة الماء تخطف عيني تأخذني لآفاق بعيدة وتهوي بي لعوالم دنيا وأفيق.
أفيق على لا شيء كما بدأت انتهي.

(٩)

أذهب يوميًّا لعملي وأجلس إلى مكتبي المتواضع أنتظر ما يعكر صوفي يوميًّا.
عم عبد المعطي يطرق باب المكتب ويدخل دون أن أسمح له بالدخول كعادته فهو يعتبر أن طرق الباب ليس من الضروري أن يعقبه إذن بالدخول.
دخل وفي يده شيئًا ما أعرفه واضعًا إياه أمامي قائلًا:
- الآنسة عائشة سابت لسيادتك ده ومشيت.
جلست والكتاب أمامي والحزن يملئني، انصرفت قبل أن أراها أو تراني هل حدث شيء أغضبها في لقائنا الأول والأخير؟
استرجعت شريط اللقاء لمْ أجدْ به ما يمهد لها فعلتها.
شيء ما ألح في رأسي أن أفتح الكتاب لعلي أجد به شيء يدلني عليها.
قلبت الأوراق أكثر من مرة ولمْ أجدْ شيئًا.

أحضرت صورة إيصال دفع المصاريف ولمْ أجد به عنوانها أو تليفونها.

ما وجدته فقط هو خط يدها وهي توقع باسمها (عائشة) اِسم يأخذك لأبعد حدود.

دفنت رأسي في مكتبي أو عالمي الخاص.

ما الذى يحدث لي؟

هل أصبحت أبحث عن من يملئ لي فراغ أيامي؟

أم أنني أرى فيها (مها) بكامل هيئتها وملامحها حتَّى ملابسها.

(١٠)

أقدارنا تتلاعب بنا.

تجعلنا نفكر بأُناس ثمَّ تجسدهم أمام ناظرنا.

الجو اليوم رائع أَجلس على ضفاف النيل أَنظر إلى لا شيء.

عقلي هو العضو الوحيد الذي يعمل الآن.

أكاد أسمع دقات قلبي من فرط الهدوء الذي يسودني الآن.

خطرت ببالي عائشة بوجهها البريء، ملابسها صوتها الذي يعبر حواجزك ويخترق قلبك ماذا شدني إليها؟

هل الشبه بينها وبين (مها) حبي الأول والأخير والوحيد معشوقتي التي تركتني أحترق شوقًا وحبًا وذهبت.

وما تلبث أن تأتي عائشة ببالي حتَّى تطرد صورتها صورة (مها) وكأنَّها ما زالت تغير عليَّ حتَّى وهي متوفاه.
أصبحت أشعر بحنين للماضي يطفئه الحلم بالمستقبل.
وأنا ما زلت سارح في صمتي أو صامت في سرحاني شعرت بيد تطرق كتفي برقة!
ارفع نظري لأراها أمامي.
هل هي حقيقة؟ أم أن صورتها خرجت من رأسي لتتجسد أمامي فأراها بوضوح.
شعرت للوهلة الأولى أنني اِنسلخت عن عالمي.
أتمنى أشياء فأجدها أمامي.
تمامًا كمن وجد نفسه بالجنة فجأة يتمنى فتستجيب أمنيته.
لمْ يقطعْ هدوء رأسي سوى صوتها!
- أنا آسفة لقيتك قاعد لوحدك قلت اِسلم عليك وأشكرك على الكتاب.
وعندما وجدتني غير مستوعب وجودها أمامي ولمْ أنطقْ بكلمة اِعتذرت على مقاطعتي وهمت منصرفة.
وحينها وحينها فقط اِستفقت من غيبوبتي المؤقتة، ومسكت يدها حتَّى لا تنصرف.
ولكني شعرت بتيار كهربائي خرج من يدها مرورًا بيدي وصولًا لقلبي ليفتك به، ويجعله حطامًا شعرت برجفتي شدت يدها من

يَدِيّ بحركة خفيفة.
تحولت ملامحها فرأيت أمامى (مها) وحمرة الخجل تكسو وجهها.
دعوتها للجلوس أمامي فجلست سألتها عن سبب وجودها هنا الآن قالت أنَّها تشعر براحة حينما يكون النيل أمامها لذلك تأتي باستمرار للجلوس على ضفافه، وأنها لمحتني فشعرت بواجب أن تشكرني.
أحسست أن هناك أشياء بيننا متشابهه أو ذلك ما تمنيته.
جلسنا وتجاذبنا أطراف الحديث تكلمت وسمعت وضحكت كما لمْ أضحك من قبل ولكن سعادتي كانت أكبر عندما أسمعها تضحك عندما أرى لمعة عيناها.
تكلمنا كثيرًا أيًا منا لمْ يتكلمْ عن نفسه تبادلنا أرقام هواتفنا دعوتها لأوصلها لبيتها بسيارتي المتواضعة فرفضت بشدة متعللة بأنَّها تسكن قريبًا، ولمْ تتحركْ حتَّى اِطمئنت أنني ابتعدت.
ذهبت إلى النيل بقلب مليء بالمنغصات عدت بقلب يرقص فرحًا وكأنني رميت همومي به.
هكذا النيل دومًا يحتوينا يحثنا أن نلقي به همومنا وأوجاعنا.

(١١)

ترابيزة تسعى لفردين فقط في مطعم كلاسيكي بوسط البلد خارج

المطعم صخب وداخل المطعم هدوء وموسيقى وبداخلي هدوء وصخب.
عندما جاء الويتر سألتها فطلبت فنجان قهوة سادة غامقة تمامًا كطلبي من الواضح أن بيننا أشياء كثيرة متشابهة كما تمنيت
سألتني عن حياتي فحكيت لها الكثير كنت حقًا مشتاق للكلام كنت أشعر بالرغبة في الحديث إليها.
تمنيت أن أتكلم في كل شيء حتَّى إحساسي بها ولكنني تراجعت خوفًا وطمعًا.
بدأنا حديثنا في المطعم وأنهيناه على ضفاف النيل بالمعادي.
ومثلما بدا حديثنا بوسط البلد بدأت قصتي بوسط البلد أيضًا.
حينها تأكدت أن الأماكن لمْ تخلقْ فقط لنسكنها ولكن خلقت لتحبس بداخلها ذكرياتنا.
التعود هو بداية الحب ونهايته أيضًا.
كيف أصبحت مدمنها؟
لا أدري ربما هو التعود.
أصبحت أقابلها يوميًا أستمتع بحديثها بدأت بدون أن أشعر أقص عليها حياتي الفائتة، وكانت عندها مقدرة كبيرة في الاستماع
اِعتدت رؤيتها يوميًا ومحادثتها بالساعات كانت الوحيدة التي أنسى معها الوقت أو أتناساه ماذا أحببت فيها؟
أشياء كثيرة مشتركة بينها وبين ملاكي الراقد تحت التراب أو الشبه

الشديد في الروح فروحها تسكن جسدها، وروح محبوبتي يسكن الجنة.

لا أدري المهم أنني بدأت فعلًا أحتاج وجودها لا أريد شيء سوى التحدث إليها ومعها.

- أدهم إحنا نعرف بعض بقالنا أد إيه؟
- حوالى ٣ شهور.
- لا ٣ شهور و ٤ أيام و ٦ ساعات بس تعرف أنا نفسي أعرف عنك كل حاجة لأنك فيه حاجات كتير مش بتتكلم عنها معايا.
- كل واحد فينا عنده حاجات ما بيحبش يتكلم عنها.
- سر يعني؟
- لا أبدًا بس الكلام أحيانًا بيوجع بيصحي جرح!
- أنا نفسي أعرف عنك كل حاجة اِعتبرني دكتور نفسي واِحكيلي كل يوم جزء من ذكرياتك.
- اتفقنا يا ستي.

وليتني لمْ أتفقْ.

(١٢)

إن العمر لا يقاس بعدد السنين ولكن يقاس بعدد اللحظات التي مرت عليك سعيدًا.

وجدتني مشدودًا إليها أتحين الوقت الممنوح لي من هبات الله لملاقاتها، ولكن الغريب أن أغلب لقائتنا كانت تتم صدفة كأنَّها تراقبني

أهو القدر؟ أم مجرد صدف تتكرر؟

كل ما بها جميل سوى أنَّها دائمة السؤال عن أكثر شيء أحاول أن أنساه وأتناساه وهو الماضي الذي لا يحمل لي سوى الوجع والحديث عنه يخلف مرارة في القلب ولكن مع تكرار اللقاء اِنشرح قلبي لحواراتها.

شعرت أن الله وهبني الحياة مرتين عشت حياتي الأولى مع (مها) كنت سعيدًا ورزقني الله ببنت جميلة تشبه أمها، ولكن لحكمة لا يعلمها سوى الله توفاهم، وتركتني وحيدًا أعاني مرارة الفراق.

لا يعلم أحد ما فاجعة فقدان الأحباب سوى من ذاق من نفس الكأس، ولكن ولحكمة لا يعلمها سوى هو سبحانه وهبني الحياة مرة أخرى، ولكن هذه المرة مع ملاك آخر (عائشة)، فالله سبحانه سلبني الحياة ثمَّ وهبنى إياها مرة أخرى.

(١٣)

هل الماضى يعيد نفسه أم أننا نشتاق إليه فنستدعيه من الذاكرة ونتخيله يتكرر؟

اِتصلت بي كعادتها في الأيام الفائتة، وطلبت مني مقابلتها على وجه السرعة على غيرعادتها حيث كنت أنا من يَصِر على مقابلتها وكانت توافق بعد تمنع كبير هي من حددت الميعاد، والمكان كانت تتكلم وكأنَّها تأمرني وكنت في حالة لا تسمح لي بالرفض أو المناقشة.

- هقابلك النهارده الساعة ٧ في الأمريكيين اللي في وسط البلد عارفه؟

- طبعًا عارفه هكون هناك في الميعاد حاولي ما تتأخريش زي كل مرة.

- حاضر.

أخذ التفكير مني....

يا ترى ماذا تريد؟

هل ستعترف لي بحبها لى؟

لو اِعترفت لي لن أستطيع تمالك نفسي سأنهار أمامها راكعًا شاكرًا حبها لي.

إمم يا ترى هناك شيء آخر؟

ماذا لو طلبت مني الابتعاد عنها؟

سأخبرها بعدم استطاعتي ذلك.

في تمام الساعة السابعة كنت أمام الأمريكيين اِلتفت يمينًا ويسارًا لعلي أراها لأنها دائمًا تأتي متأخرة.

وعندما دخلت وجدتها وكانت تجلس في نفس الترابيزة في آخر الركن الأيمن.
عندها فقط اِستفقت من تفكيري.
اِستفقت من كل ما يدور حولي.
اِنتابني إحساس رهيب بأنني مسحور خلفها مسلوبة إرادتي.
كيف لمْ أنتبه لها وهي تخبرنى بأن المكان المحدد هو الأمريكيين؟
هل أصابني فقدان للذاكرة؟
حتَّى إن أصابني فقدان للذاكرة كان لا بد ألَّا أنسى الأمريكيين أو أنسى ترابيزة الركن الأيمن، فتلك الترابيزة لها عندي ذكريات جميلة مع (مها) فهي كانت الملتقى الدائم كيف تناسيت موضوع الترابيزة وهي تمليني العنوان.
أحسست برعشة تسري في عروقي فمشهدها من بعيد ذكرتني ب (مها) نفس الجلسة نفس الترابيزة في نفس المحل. ما هذه الصدفة؟
وكأن القدر يريد أن نعيد القصة من بدايتها حتَّى أنها طلبت نفس المشروب الذي طلبته (مها) في أول لقاء نسكافيه مظبوط حليب زيادة هل أحلم؟
هل أصبحت مختل وأتخيل أشياء لا تحدث؟
هل حبي ل(مها) وإعجابي بعائشة له دخل في ذلك؟ هل نسيت (مها)؟ حبي الأول أم أنني أجدها في عائشة وهو ما قربني منها.

نفضت عني هواجسي لأستمتع بلقائها أُمَلِي عيني بصورتها وأُذني بصوتها!

- بص يا إسماعيلي ليك عندي خبر حلو أنا خلصت الماجيستير وهناقشه قريب جدًا وعاوزاك تكون موجود لأنك ليك فضل كبير في الموضوع ده.

- أنا بجد فرحان أوي. أكيد هكون معاكِ في اليوم ده طبعًا.

(١٤)

اللقاء الأول للحب الأول.

إن للحب الأول بصمة في القلب لا تنسى!

عندما رأيتها أول مرة أحسست برجفة تملكتني زلزال يضرب قلبي ويهدم مسكني ويجعلني مشردًا

لم أشعر بأنه الحب ولمْ أكن أعلم ما تعنيه هذه الكلمة فقلبي ما زال صغيرًا لمْ ينبض بعد لم يعرف للحب عنوانًا ولكنه شعور لم أعرفه من قبل ولن أعرفه لاحقًا.

كنا كعادتنا ونحن في مرحلة الشباب أنا وأصدقائي عندما نرى فتاة جميلة أو مثيرة أن نتسابق للرهان عليها من يستطيع أن يكلمها أو يخرج بصحبتها أو يجعلها تحبه.

تمنيت أن يراهنني أحدهم أن أكلمها ولكن في نفس الوقت تمنيت

ألَّا يراها أحدًا منهم أن إحساسى بها شيئًا خاص بي وحدي فأنا أشعر أنَّها ملكي.
يا الله ما هذا؟
رأيتها يومًا ثمَّ يومًا آخر كانت لا تمشي وحدها أبدًا.
فمرة تمشي مع والدتها هذة المرأة الجميلة القصيرة ممتلئة الجسم أحببت والدتها.
لولا نظرتها المخيفة التي كانت ترمينى بها كلما رأتني أنظر باشتياق إلى اِبنتها الوحيدة لكان لي معها شأن آخر لكنت صارحتها برغبتي في رؤية اِبنتها كل دقيقة.
وكانت تمشي مرات مع صديقتها الوحيدة قررت أن أعرف أين تسكن وعرفت.
وعرفت أيضًا أن القمر يسكن في السماء ولكنه يسكن في حَينَا أحيانًا.
أنَّها تسكن بالقرب من بيتنا وكأنها هبطت على حَينَا فجأة.
حاولت أن أشغلها شغلتني!
حاولت أن أجعلها تحبني جعلتني أتمزق شوقًا إليها!
أذهب إلى بيتها يوميًّا لعلي أراها خلسة أذهب إلى كليتها ولا أعرف ميعاد محاضراتها وأرجع خائب الرجا حتَّى جاء اليوم الموعود.
- معلش يا عائشة سامحيني أنا مش قادر أكمل وكانت الكلمات

تخرج من فمي بصعوبة مع محاولتي عدم البكاء!
- أنا آسفة بس واضح إنك كنت بتحبها أوي.
- وما زالت بحبها وعمري ما هنساها، ولكن لحظتها غلبتني دموعي كانت دموعي تنهمر بدون صوت فقط مجرد دموع تنهمر وقلب مجروح وإحساس ممزق.
- بس اِفتكر للحديث بقية.

(١٥)

إن حقًا أبغض الحلال عند الله الطلاق.
ولكن الموت أبغض ألف مرة!
فدفن الأحباء أكثر مرارة من فراقهم!
صحوت من نومي مفزوعًا كعادتي كل يوم على أكثر صوت مزعج اِخترعه البشر لإزعاجهم بدعوى أنَّه يساعدهم على الاستيقاظ إنه المنبه كل يوم تنتابني رغبة في تكسيره.
عندما خرجت من غرفتي وجدتها تجلس، وكانت كعادتها تتحدث في التليفون الذي أصبح جزءًا من وجهها.
- صباح الخيريا أمي.
لمْ تعرني اِهتمام ولمْ تردْ دخلت الحمام وخرجت وألقيت إليها بنفس التحية لمْ تردْ أيضًا اِندهشت ولمْ أعلق، وعندما هممت

بارتداء ملابسي فوجئت بها تقتحم غرفتي وهي تنادي عليّ ولكنها لا تراني، وكنت أرد عليها أيوه يا أمي أنا صاحي من بدري.
هي تتجاهل كلامي.
- اِصحى يا ابني هتتأخر على الشغل.
أراها أمامي و لا تراني ماذا حدث لها؟
توجهت إلى حيث تقف كانت أمام سريري تحاول إيقاظي ويالهول ما رأيت.
رأيتني ما زلت ممددًا على سريرى وأغط في نوم عميق كيف وأنا أقف وأراني. ماذا يحدث؟
أخذت تهزني بعنف وهي تبكي وتصرخ وأنا أقف لا أفهم شيئًا.
اِتصلت بأحدًا ما وهي تصرخ وتبكي ألحقني أدهم مااااات.
أنا مت؟ كيف؟
جلست تبكيني وتتشنج وانهارت وأنا أرقبها وأربت على كتيفها ولكنها لا تشعر بي.
وفي لحظات تجمع الأهل والجيران من أعرفهم ومن لمْ أرهم من قبل ورأيت فيما رأيت أصدقائي وهم في حالة اِنهيار يبكون كالحريم.
ومن جعل البكاء للحريم فقط؟
غسلوني كفنوني وضعوني في النعش، حملوني والدموع تملئ العيون وأنا ما زلت أرقبهم.

من يدعو لي من يردد الشهادة ومن يعدد محاسني ولكنني عندما كنت بينهم لمْ أسمعْ منهم ذلك ليتني أعود لأشكرهم على أحاسيسهم

أنزلوني قبري أهالوا على جسدي التراب تركوني وذهبوا أسمع وقع خطواتهم تبتعد وفجأة وبدون مقدمات...

يرن أكثر صوت مزعج اِخترعه البشر إنه المنبه!

إذن فأنا كنت أحلم وياله من حلم بل كابوس!

طوال عمري كنت أتمنى أن أعيش بمفردي لأسمع أحد ولا أتكلم مع أحد ولا أرى أحد، أعيش في مكان معزول ويتم اِنتزاع شعور الخوف مني.

وكان يقيني بأن ذلك لن يحدث إلَّا بالموت، وعندما جربت شعور الموت تمنيت ألَّا يستجيب الله لي بتحقيق أمنيتي.

(١٦)

دائمًا ما تتحقق أحلامنا وأمانينا عن طريق الصدفة.

كان حقًا يومي الموعود.

رأيتها صدفة بل قدرًا هي وصديقتها تجوبان شوارع وسط البلد، ورغم صخب شارع وسط البلد أحسست أننا نسير في مكان مهجور

فأنا لا أرى سواها ولا أسمع سوى صوت أنفاسها اِختصرت العالم فيها.

تكلمت كثيرًا وهي تسمع ولا تعقب لمْ تتكلم نظرت لصديقتها لتتولى هي الرد عليّ.

- لو فعلا بتحبها اِتقدملها.

أحسست أنها دعوة.

كم أعشقها!

كنت أحكي وعائشة تسمع ولا تتكلم كانت تستدرجني، وكانت عندي الرغبة في الحكي في استرجاع الماضي والشعور به مرة أخرى وكأنني أعيشه من جديد نفس الأحاسيس نفس دفء المشاعر.

حاولت بعدها مرات ومرات أن أحادثها وأتحدث إليها ولكنها كانت تأبى ذلك.

ومع كثرة محاولاتي وإلحاحي وافقت أن ألتقي بها مرة واحدة لتعرف نوايايا تجاهها، وتكررت لقائتنا.

ولكنني كنت أشعر أنَّها لقاءات مبتورة النهايات.

كنت أشعر دومًا أن هناك شيء منقوص.

ولكنني كنت أتغاضى لأننى تمنيتها.

تمنيت أن أحيا العمر كله بجوارها.

أشعر أنها تحبني مثلما أعشقها، ولكن ينقصها شيئًا لا أفهمه لا أشعر به.

كنت دائمة السرحان، ولكنني تغاضيت.
عندما تأكدت من فرط حبي لها عشنا أسعد شهور حياتنا عشت معها سنتين من أروع ما يكون.
بدأت أبتعد عن أصدقائي كنت أكتفي بها عن كل الناس أهلي وأصدقائي اِكتفيت بها حتَّى عن نفسي.
كنت أحب رؤيتها وأريد أن أعيش معها فقط.
كنت أتحدث معها بالساعات ملأت عليّ حياتي.
- عائشة أنا مش عارف ليه بشغلك بحياتي إلى فاتت؟
- يمكن عشان بترتاح في الكلام معايا.
- ده حقيقي بس أنا مش عاوز أحكيلك تاني عن الماضي.
- ولو قلتلك إن أنا عاوزة أعرف كل حاجة عنك؟
- يبقى جبتيه لنفسك.
لماذا تعذبني، وتعذب نفسها وتجبرنا على سرد ماضي انتهى ولن يعود.
ولكنني مشدودًا للحكي؛ لأنه من ناحية يحيى لديّ ذكريات كان ملقاة في سرداب النسيان ولأنني أشعر في حضرتها بالراحة، ولكن المدهش أنها كانت تشعر بنفس السعادة حينما أكون سعيدًا.
كات تتجاوب مع حكاياتي بشكل ملفت.
فعندما أتأثر أراها تبكي، وعندما أضحك أرى لمعة الحب في عينها.
كانت تذكرني دائمًا ب (مها)، ولكنها كانت تنتبه لكلماتي أكثر منها

ف(مها) كانت دائمة الشرود والنظر في اللاشيء.

(١٧)

المشهد من الأعلى روعة كنا بالأعلى والقاهرة بالأسفل كانها ترتمي تحت أقدامنا.
المقطم لها سحرًا خاص المكان الأكثر هدوءًا، والذي ينظر إلى المكان الأكثر صخبًا.
تكلمنا وضحكنا وتصارحنا.
كنا نضحك، ونحن نتحدث بل كنا نتحدث ونحن نضحك بل كنا نتصارح.
حتى تكلم كيفو.
كان يشعل سيجارته الثالثة أو الرابعة المحشوة بالحشيش، وقد لعب الحشيش بعقله وبدأ في سرد تفاصيل حياته، وقد اِستعرنا بأنه يريد من يسمعه فتركناه يتكلم ويتكلم، بدأ من طفولته وكم كانت حياته غير سعيدة فهو المولود الرابع من إجمالى سبعة مواليد لرجل فقير يعمل بالبناء مِمَّا يعني أن رزقه يوم بيوم.
ولا بد لجميع الصبية من العمل فعرف من طفولته معنى الشقاء حتَّى يساهم في البيت والباقي لا يسد احتياجاته.
كان يعمل في أكثر من مكان بنفس الوقت، وعندما حان وقت

الزواج تزوج من ابنه عمه والذي تشبهه على حد قوله كانت تشبهه شكلًا وموضوعًا، وحتَّى الظروف المعيشية كانت متشابهه بدرجة كبيرة، وكان يظن أن هذا سيجعلها معتادة على الظروف الضيقة، ولكن الزواج بالنسبة لها كان تطلع للهروب من حياة والدها المتقشفة إلى حياة زوج سيعوضها عن أيام الشقاء، ولكنها كانت لا تعلم أنَّها هربت من الفقر مع الوالد لتلقاه مع زوج ليس بيده حيلة، لأن الفقر كالصديق الوفي لا يترك صديقه إلَّا في القبر.

كم أشفق على كيفو أنه فتى مجاهد ومجتهد، ولكنه ناقم على حياته حتَّى تحولت إلى حياة لا تطاق.

دائمًا الإنسان لا ينظر إلى النعم التي منحها الله له وينظر دائمًا إلى ما ليس له.

فكيفو عنده زوجة تحبه وعند رجوعه تضمه إلى صدرها يستشف منه الحنان، وعنده أولادهم قرة عينيه يحبهم ويحبونه يحتاجهم ويحتاجونه.

والأهم من ذلك أن له هدف بالحياة، وهو العبور بزوجته وأولاده لبر الأمان بأن يكبر الأولاد في سترٍ.

كان دائم التكلم بلهجة الإنسان الذي ظلمته أقداره.

إن الفقر مرض ليس له شفاء، ولكن ممكن قتله بالرضا.

لمْ يسكتْ كيفو إلَّا عندما شعر بدموعه الساخنة تنسال على

وجنتيه وعندما نظر في وجوهنا وجد بها من الحزن ما يكفي.
- معلش يا جماعة أنا زودتها أوي النهارده، بس أنا برتاح وأنا بتكلم معاكم لأني ما أقدرش أقول الكلام لحد تاني غيركم.
- ياعم اِتكلم براحتك إحنا كلنا مشاكل قالها سمسم لكيفو الذي أخذ نفس عميق من السيجارة وأخرجه دخان كثيف، وهو يعبر أن لا أحدًا لا يعاني مشاكله قالها وهو يشيح بنظرة باتجاه إسماعيل بنظرة خاطفة لمحها إسماعيل رغم العتمة التي تحيط بالمكان، فبادره بقوله أن الإنسان لا يشعر بالنعم التي بيده إلَّا لو كان الرضا يملئ قلبه، فطن سمسم لما سوف يحدث فحثنا على الانصراف فانصرفنا.

(١٨)

ماذا لو كان خلقنا الله حيوانات؟ أي حيوان ستختار أن تكون؟
سؤالها نزل عليّ كالمفاجأة لا أعلم ماذا أقول. فكرت قليلًا.
أحب أن أكون نسرًا أحلق بعيدًا أكون أعلى طائر أرى الأشياء من الأعلى ولكنهم سيصطادونني.
أحب أن أكون أسدًا فأكون أقوى الحيوانات، ولكن حينها كانت ستتجمع على الضباع.
أحب أن أكون تمساحًا كائن برمائي أسكن البحر وقتما أحب

وأسكن الأرض وقتما أشاء اصطاد فريستي من البر وأجرها إلى البحر أأكلها على مهل لا يجرؤ كائن على صيدي أو منازعتي مملكتي، أنا الكائن الذي يهابني الجميع.
إجابتي نزلت عليها بردًا وسلامًا، وكأنَّها ننتظرها اِبتسمت قائلة كنت متوقعة أنك هتختار ما بين النسر والتمساح.
ولما سألتها مستفسرًا قالت أن هذين الحيوانين يشبهاني كثيرًا؛ لأن هناك دراسات أثبتت أن الإنسان له ما للحيوانات من صفات، فأنت تملك قلب النسر وتحليقه للسماء ونظرته الثاقبه وحبه للحرية، ولك ما للتمساح من قوة واِفتراس وحب للتغيير ما بين الماء والأرض.
كان دائمًا حديثها يجرني جرًا للكلام عن (مها) ملاكي الراقد!
وكنت دائمًا أسأل نفسي كيف أشعر ناحيتها بالارتياح وأود دائمًا الكلام معها، وملازمتها وفي نفس الوقت حبيبة عمري تملأ قلبي وحياتي وكياني.
أهي حقًا تشبهها؟ أشعر أنَّها تمتلك أغلب صفاتها بدءًا من القوة التي تمتزج بالضعف وهيئتها ونفس ملابسها ونفس ألوان الملابس، ولكن أكثر ما لفت انتباهي أنَّها تستعمل نفس البرفان الذي كانت تحبه وتستخدمه (مها).

عندما كنا صغارًا كنا لا نفترق نسهر نلعب الكوتشينة والشطرنج

حتَّى الساعات الأولى من اليوم الجديد.
كانوا وما زالوا ليسوا بأصدقاء فقط بل هم قطعة من تاريخي وماضيي ومستقبلي.
عشت معهم أكثر من أهلي يعرفون عني أكثر ما تعرف أمي وأختي عشت في بيوتهم مثلما عشت في بيتنا.
كانت بيوتنا مفتوحة لنا جميعًا نأكل ونلعب ونسهر وكأننا أصحاب البيت فأمي كانت صديقة أمهاتهم والأخوة البنات أيضًا.
فالجيرة في المناطق الشعبية هكذا، وحتَّى عندما فتح الله على والد إسماعيل وانتقلوا للعيشة في إحدى المناطق الراقية لمْ يستطيعوا التأقلم ورجعوا حيث الأهل والجيران، وكانت فرحتنا برجوعهم كبيرة.
واستمر حالنا هكذا بين السهر ولعب الشطرنج حتَّى أتى عم صديقا لنا من الخارج حاملًا معه لعبة الاستميشن وكأنها كالسحر!
ما لبثنا أن تعلمناها، ومن ثمَّ أدمناها وظلت عالقة معنا حتَّى يومنا هذا لا نلتقي إلا حول ترابيزة ممدد عليها الأوراق، وتبدأ السهرة
كانت فترة الدراسة الثانوية من أزهى فترات حياتنا من حيث النشاط، ولكن ولأننا لا نختار أقدارنا توفى والدي قبل أداء الامتحانات بوقت قليل.
وحين تذكرت والدي أحسست بدموع حارة تسقط من عيني

فانتبهت لها فقد كانت تجلس أمامي تسمع باهتمام ليس له مثيل، وقد أصبح هذا وضع متكرر أنا أتحدث أمامها، وكأنني أحدث نفسي وهي تنصت لكلامي فى خشوع وكأنها تؤدي صلاتها. ولما اِنتبهت إليها وجدت يدها ممددة إليّ بمنديل جففت عيوني، واستأذنتها لأغسل وجهي غسلت وجهي وتأملت عينب بالمرآة، وعند عودتي لمحتها من بعيد تتحدث في التليفون وعند اِقترابي أغلقت الهاتف وبأن عليها الاضطراب قليلًا أو هكذا ظننت. خرجنا وتمشينا كثيرًا.

(١٩)

تغيرت حياتي عمَّا كانت، ولكن اِستمر السهر مع الأصدقاء والعمل البائس وزيارة المقابر بين الحين والآخر.

ولكن أصبح ما يشغل يومي لقائي بها وتمضية اليوم بصحبتها ماذا حدث لك يا أدهم؟

كنت أحادث نفسي دائمًا بأن ما يحدث يربكني هل أحببتها؟ أم أحببت لقائها فقط؟ أم اِعتدت محادثتها؟ أكره ضعفي.

ولذلك قررت الهروب كان عليّ اِتخاذ قرار يبعدني عنها ويجعلني أفكر في هدوء الملم شتات نفسي أستعيد وعي الغائب

سافرت إلى الإسكندرية، ولم أخبر أحدًا سوى أمي حتَّى لا تقلق.

أغلقت هاتفي وسافرت...

كنت أصحو من النوم على منظر البحر الممتد أمامي أجلس وحيدًا تعطلت عندي حاستيّ السمع، والكلام وكنت أشغل وقتي بالكتابة والقراءة وتأمل البحر.

مرت الأيام رتيبة وأحسست وقتها أنَّها كانت تشغل حيزًا ليس بصغير في حياتي.

أصبحت أتحسس وجودها بجانبي ولكني لمْ أسعَ إليه كنت أنشد البعد عن كل شيء.

مرت ثلاث ليالٍ ولمْ أطق أن أكمل الأسبوع كما كنت أنوي.

وجدتني أرتمي على كرسي بالقطار العائد إلى القاهرة أنهش الطريق بعيني أستعجل الوصول.

كنت بالقطار ما بين القاهرة، والإسكندرية ولكن عقلي سبقني إليها.

وجدتني أحدثها إنَّها وحشتنى جدًا وأنني أعشقها ولمْ يعوضني عن غيابها شيء أحبها كما لمْ أحب من قبل، ولن أحب بعدها أحدًا.

وصل القطار ووجدتني أرتمي مرة أخرى بداخل تاكسي ووقفت ببابها أخذت المفتاح وأدرت القفل فانفتح الباب محدثًا صليلًا هائلًا، ووجدته خلفي يرش الماء البارد بيديه على المدفن ويسقي شجر الصبار.

مر الوقت بطيئا في حضرتها وهبط الليل فجأة وأنا ما زلت أحادثها. صوت التُرَبِي ينبهني أن الليل قد حل ولا بد لي من الانصراف لأن الأموات في حاجة أيضًا للراحة ترجيته أن أبقى قليلًا فقد عقدت العزم على مصارحتها بعلاقتي بعائشة العلاقة التي بدأت تنهش في قلبي.

كنت أجلس أمامها كطفل خائب كنت أحدثها وأنا أنظر إلى الأرض.

حكيت كل ما دار بيني وبينها، وحكيت أحاسيسى تجاهها وانتظرت أن تغضب أو تنهرني أو تتهمني أنني نسيتها لكنها صمتت.

فوعدتها أن أنهي علاقتي بها اليوم لأنني لا أطيق رؤية نفسي أخونها ولو بخيالي، ولكنها صمتت أيضًا.

فانصرفت.

اِتصلت بعائشة ووأعدتها في نفس الكافيه بعد ساعتين ولكني لمْ أطق الانتظار سبقتني قدمي إلى الكافيه قبل الميعاد بساعتين، وجلست أفكر كيف أفاتحها فيما نويت فأنا لا أريد لهذه العلاقة أن تستمر أكثر من ذلك.

ماذا فعلتِ بي أيتها العائشة؟!

أصبحت لا أستطيع الاستغناء عنكِ لا أعرف هل أحببتك أم اِعتدت وجودك بحياتي ولكني سأبطر هذه العلاقة الآن.

عندما ستأتي أفجرها أمام عينها.

يا عائشة لا أريد أن أراكِ ثانيًا من فضلك أبعدي عينكِ عني لا أستطيع ولا أريد أن أراكِ نظرتك لي تربكني.
أنني أحب زوجتي ولا أريد خيانتها حتَّى وهي غير موجودة.
وأنا أحدثها عنكِ اليوم سمعتها تبكي خيانتي لها كنت، وهي موجودة لا أطيق أن أراها تبكي.
كانت وكأن دموعها تقتلني، فكيف لي أن أجعلها تبكي الآن وهي تحت التراب لا تستطيع الارتماء في حضني.
وجدتها آتية من بعيد كأنها حضرت من العدم حتَّى وقفت أمامي، وبدون كلام أخذت فنجان القهوة من أمامي وشربته، وهي تنظر لي وأنا أنظر في أم عينها.
ومر الوقت ولم يتكلم أحدانا كلًا منا ينتظر البدء من الآخر حتَّى سألتني أين كنت؟
لمْ أعرفْ كيف أجيب غير أن لساني أفصح عمَّا كنت أشعر قائلًا وحشتيني.
وفي لحظة تحولت النظرة في عينها من الضيق إلى مخارج السعادة واحمرت وجنتيها، ونظرت للأرض كسوفًا وخجلًا.
كيف قلتها ولماذا وأنا كنت أنوي من ثواني معدودة أن أتركها وأنهي هذه العلاقة التي لا أعلم لها مسمى ولا نهاية.
مر الوقت معها كالعادة بدون أن أشعر وجدنا أنفسنا مشينا كثيرًا، وعلى غير عادتها لمْ تسألني أو تحدثني عن الماضي.

ربما شعرت بأن هذا الأمر يضايقني كم هي ذكية كانت طوال الطريق تضحك وتلهو، أشعرتني فعلًا أنه لا مشكلة فمن يصدق أنني منذ دقائق كنت أنوي إنهاء علاقتي بها، وهي من تخرجني من حالة الاكئتاب التي تنتابني من وقتٍ لآخر.

(٢٠)

وجدتني أتصل بها وأواعدها، وعند مجيئها فاجأتها بأنني أريد أن أحكي لها كل ما مررت به في حياتي وكانت مفاجأة لها.
حيث أننا في الأونة الخيرة اِمتنعنا عن الحديث في الماضي، وما دعاني لذلك أننى أردت أن تعرف عني كل شيء لأنني أحسست أنني من الممكن الارتباط بها في وقتًا ما وقبل أن أتحدث معها سألتها عن حياتها التي لا أعلم عنها شيء وعدتني عندما اِنتهى من قصتي ستروي لي قصتها.
سألتها أين اِنتهينا آخر مرة فاجأتني أنها متذكرة، وكأنها تنتظر السؤال.
وفاة والدك قبل الامتحانات.
- اه فعلًا بموت والدي اِنطفأ القنديل اِنزاح السند والضهر باختصار اِنكشفت!
يومها مشيت بالشارع، وعجبت أن الناس تمشي وتضحك عجبت

أن الحياة تسير بصور طبيعية.
كنت أشعر أن الحياة لا بد لها أن تتوقف.
كيف سيعيش الناس حياتهم يأكلون وينامون يحبون بعضهم ويضحكون.
مررت بفترة موت بالبطيء إحساس رهيب بالمسئولية ليست مسئولية فلوس، ومصاريف لأنني كنا ميسوريين والحمد لله، ولكن مسئولية والدتي وأختي ومسئوليتي أنا نفسي.
كنت أتكلم وهي تنظر لعيني مباشرًا كأنها تستشف حقيقة كلامي ولا تنطق كأنها تحولت إلى أُذن فقط جميع حواسها منصبة في أذنها.
لمْ أكنْ أنوي دخول الامتحان بسبب سوء نفسيتي وبعد إلحاح من والدتي دخلت ونجحت، ولكن بمجموع قليل لم يؤهلني لدخول أي كلية.
فقط معهد الخدمة الاجتماعية، والذي بدوره أرسلني لمدرسة عقيمة في وظيفة أكثر عقمًا.
كم أكره التنسيق الذي يعتمد على درجات اِمتحان واحد في تحديد مستقبلك، ولا يأخذ في الحسبان إن أحدًا والده تُوُفِيَ قبل الامتحان بوقتٍ قصير.
رجعت إلى حياتي التي تغيرت كثيرًا بموت والدي، ولكن أصدقائي كانوا لي عونًا دائمًا فهم لمْ يتركوا الأحزان تنهشني!

كنا نسافر أحيانًا إلى الإسكندرية نسكن شقة والد إسماعيل التي تطل على البحر، وكانت بالشقة ذكريات كثيرة.

كان إسماعيل يتولى تحضير الطعام، وكان كيفو يشتريه أمَّا سمسم فيقوم بتحضير الترابيزة وأنا على عمل الشاي.

ثمَّ ننطلق إلى البحر يأخذ منا ونأخذ منه حتَّى ينهكنا التعب، نرجع للشقة نستبدل ملابسنا وننزل مرة أخرى وكأننا نسرق الوقت

ففي مرحلة الشباب لا بد لك ألَّا تضيع من وقتك الكثير نخرج ونسهر ونلهو حتَّى الساعات الأولى من اليوم الجديد، ونرجع ننام منهكين.

ثمَّ نعادوا الكَرَّة من صباح اليوم الجديد كانت حياتنا أسهل من الآن بكثير!

وكنا لا نحمل للدنيا همًا.

وفي المعهد كان لي أصدقاء أكثر من الجنسين ولكني لمْ أشعر تجاههم بالإحساس الذي أشعر به مع أصدقاء طفولتي، فكنت أَنتظر المحاضرات تنتهي حتَّى أرجع إلى أصدقائي الحقيقيين نلعب ونسهر.

ودخلت (مها) حياتي فجأة كما حكيت لك سابقًا.

تذكرت (مها) أحسست برغبة في البكاء أحسست بنفس مشاعري القديمة رأيتها أمامي تعبر الشارع ممسكة بيد أمها تنظر تجاهي

بطرف عينها حتَّى لا أراها تنظر لي ولكنها لا تعلم أنني لا أُزحزح عيني عنها فألمحها فتخفي نظرتها عني.
عندما تأتي سيرتها أشعر بأن قلبي يقطر دمًا من فرط اِشتياقي.
- وأنا بحكيلك عنها وقفنا عند إيه؟
فاجأتني بقولها:
بدأت أبتعد عن أصدقائي كنت أكتفي بها عن كل الناس أهلي وأصدقائي حتَّى نفسي كنت أحب رؤيتها وأريد أن أعيش معها فقط.
كنت أتحدث معها بالساعات.
ملأت عليّ حياتي.
كيف لها أن تحفظ الجمل بهذة الدقة هل تقوم بالتسجيل لي عندما أتكلم أم أنَّها مهتمة بكل تفاصيلي أم إنَّه الفضول لمعرفة قصة حياة إنسان قابلها صدفة، وارتاحت لحديثه؟
ليكن ما يكون.
سنرى!
كانت أول حب في حياتي وآخره أيضًا وكأن الله يكافئني بها.
فالحب الأول دائمًا لا ينسى، شيء لا يوصف.
ففيه أول ماسكة يد بأيادي مرتعشة وعيون زائغة وخوف من عيون الناس، وفيه أيضًا قلب يفتح لأول مرة كورد الربيع وأول هدية.

باختصار الحب الأول هو الذكريات و (مها) هي كل ذكرياتي.
كنت أحافظ على مشاعر عائشة قدر المستطاع، ولكن حينما يكون الحديث عن (مها) لا أستطيع منع نفسي من التكلم عنها بما يليق بها.
والغريب أنني كنت لا أشعر بغضب أو غيرة من عائشة كانت تحترم حبي لها، وكانت عائشة بحق مستمعة جيدة جدًا.
مرت الأيام وازداد تعلقي بها وأردت أن أترجم هذا الحلم إلى حقيقة حاربنا وعافرنا لتتم الخطبة واتخطبنا.
كانت أجمل أيامنا وأنقاها عشنا أجمل خطبة في الدنيا، ولكنها كانت كعادة بنات جنسها متطلعة تريد أن تملك الدنيا بيديها.
تريد أن تطير فوق البشر، وتحت السحاب كانت تتمنى أن تلف العالم.
ولن أنسى يوم زفاف إسماعيل صديقي كانت العروس صديقتها، ولما علمت أن شهر العسل سيتم قضاؤه في أوروبا أقامت الدنيا حزنًا.
وحكت لي أنَّها كانت تتمنى قضائنا لشهر العسل في أي دولة.
وحيث أنني كنت لا زلت أحاول الانتهاء من تشطيب عش الزوجية فقد وعدتها لما وجدت الحزن يملئ عينيها أننا سنقضي شهر العسل في أي دولة تختارها.
وعندما عاد إسماعيل من شهر العسل زرناه وجدت في عينها

الانبهار.
أحسست برجفة بسيطة بجسدي لأفاجأ أننا واقفين على كورنيش النيل، ونسمات من الجو اللاذع تداعب أجسادنا وأن الوقت سرقنا ووجدتها شبه ترتعش، ولكنها لمْ ترد مقاطعتي عندما وجدتني مندمج في الحكي.
ورفضت أيضًا أن أوصلها قرب بيتها، وحتَّى الآن لا أعرف السبب هل هو عدم ثقة أم أنها لا تريدني أن أعرف أين تسكن؟

(٢١)

نحن في حياة بعض الناس مجرد تجربة.
عندما كنت صغيرًا كانت أحب أن أكون إمامًا للناس في الصلاة لمْ أكنْ أحفظ من القرآن الكثير فقط السور القصيرة، ولكن ما كان يستهويني أن أقول للناس استووا فيصطفون خلفي.
وأنا راكع وفي الصلوات الجهرية أشعر بعددهم في قولهم آميييين ينتظروني وأنا ساجد.
أحيانًا كنت أتعمد الإطالة في السجود لمد فترة الدعاء ولكن الآن أسأل نفسي لماذا كنت أتعمد الإمامة وأحبو إليها؟
هل هو شعور بالقيادة أم شعور بأحقية الإمامة أم شعور بعدمْ الأهمية في شيء فأحاول الاستشعار بالأهمية في كون الناس

تصطف خلفي في الصلاة؟
تذكرت هذه الملاحظة فجأة وأنا أحدثها ولم أجد حرجًا في سردها عليها.
كان وجهها كعادته وجهًا أصم أبكم لا ينم عن أي تعبيرات وكأنه وجه مرسوم في لوحة أو منحوت على صخرة، وجه بلا مشاعر.
هل ذلك بسبب اِنصاتها الكامل أم إعجاب بكلماتي أم اِستغراب مني، ولكن كلماتها كان تحمل تعبيرات أخرى لا تنطق بها إلا عندما أتوقف عن الكلام، وعندها فقط تبدأ بالكلام والتحليل كانت حقيقةً تبهرني بكلماتها المنتقاة التي تقول بها الحقيقة ولكنها لا تزعجني أو تغضبني.
خوفي من فقدها فجأة كان يقتلني أَتطلع لمصارحتها بمشاعري التي لمْ أَختبرها ولمْ أَتاكد منها فهل أنا حقًا أحبها.
أم أنه التعود فقد أصبحت أحادثها يوميًا وأحكي لها كل ما يجول بخاطري بطريقة لم أفعلها من قبل، ولكنني كنت دومًا أأجل مصارحتي لها لوقت آخر.
وأخاف دائمًا أن نصبح في حياة بعضنا البعض مجرد تجربة.

(٢٢)

أسوأ إحساس فى الدنيا.

لما تصحي فجأة تكتشف أن ذكرياتك اِتسرقت منك.
صحابك بقى ليهم صحاب غيرك.
أهلك بقى لهم أهل أقرب لهم منك.
المكان اللي عيشت فيه وحبيته فارقته.
زي إحساسك لما حبيبتك يبقى لها حبيب غيرك.
وده اسمه الإحباط. أنا فعلًا محبط كل ما حولي يدعوني للإحباط.
كنت أصارحها وكأنني أحادث نفسي. أنظر في مرآة وأتكلم.
كانت لا تتحدث إلَّا لو أحست أنني محبط وأريد من ينتشلني من عثرتي ولكنني عندما أتحدث عن (مها).
كانت تتركني وأنا الذي لا يمل من الحديث عنها.
أيَّام صعبة ولكنها جميلة، فنحن لا نشعر بحلاوة الزمن قبل فواته. لا بد أن يمر لنشعر كم كانت أيام جميلة، ولكنها مرهقة!
مر وقت الخطوبة، وكانت أجمل أيَّام عمري أحببتها وأخلصت لها عشقتها وعشقت حبي لها!
وجاء يوم الزفاف اليوم الذي تنتظره أي فتاة من يوم مولدها.
تنتظر اليوم الذي تملك فيه قلب رجل وعقله وبيته.
خلقها الله تحبو للأمومة حَبَوًا تشتهي أن تصبح أمًا.
فرحنا يومها كما لمْ نفرحْ من قبل كانت تجلس في الكوشة كملكة متوجة!
الموسيقى من حولنا تعلو وتهبط وحلقات الرقص تستمر الفرحة

تعلو الوجوه.
انتهى الفرح، وانتهت معه مرحلة الخطوبة بحلوها وضغطها وبدأت مرحلة أخرى أكثر نضجًا.
تحوي زوج وزجة ومسئولية أكبر في إنشاء أسرة تستطيع الصمود في الحياة الطاحنة.
اِنتهت أكثر أيَّام حياتي سعادة وبدأت أيام أكثر سعادة.
ولكنني لمْ أستطع الوفاء بوعدي لها بقضاء شهر العسل في دولة أوربية.

(٢٣)

الذكريات...
الماضي هو أجمل أيَّام حياتنا والأجمل هو التفكير به.
حينما يتملكنا الحزن وقسوة الأيَّام نستدعي ذكرياتنا التي تكون دائمًا أفضل من حاضرنا.
فهي ليست أفضل فعليًّا، ولكننا نجعلها أفضل لتكون وسادتنا التي نشتاق للنوم عليها عندما يغلبنا الأرق.
بها أحلامنا التي لمْ نستطِعْ تحقيقها. حتىَّ لحظات اِنكسارنا نحبها!
ولكننا لو عاد بنا زماننا لكررنا نفس قرارتنا، وعشنا نفس ماعشناه.
ولكن اِشياقنا للماضي ما هو سوى اِشتياق للأحاسيس.

(٢٤)

أحسست بأنني أريد أن أرتبط بها رباطًا لا ينفك أبدا وكان دائمًا يراودني إحساس بالذنب العميق، ومع قراري باعتراف لها يظهر لي وجه (مها) فأتراجع ولكنني حتمًا سأأخذ القرار في الوقت المناسب.

كنت على موعد معها اليوم كعادتنا في المقابلات المستمرة في الأيام الفائتة.

وما إن جلسنا في نفس المكان، وعلى نفس الترابيزة، وطلبنا نفس المشروبات وجدت وجهها وكأنها تحولت وأصبحت (مها).

ووجدتني فجأة وبدون مقدمات، و بدون شعور أطلب يدها للزواج!

فجأة توقف الزمن!!

مر أمام عيني شريط حياتي طفولتي وشبابي وزواجي أصدقائي و(مها) أمي وأختي حياتي ذكرياتي وافقت من غيبوبتي على صوتها وهي تفاجأني بأنها لا ترفض الارتباط بي ولكنها تحتاج مهلة للتفكير.

أحسست براحة لأنني بوحت بالسر الذي كان يقبع في قاع قلبي.

وأحسست كذلك بندم لأنني بصدد أن تتغير حياتي بكلمة منها.

إسماعيل العرابي

(١)

وقفت أمام اللافتة النحاسية لعيادته أتفحص اسمه (رؤوف الجابري) دكتوراه في الأمراض النفسية، والعصبية

كنت أتلفت يمينًا ويسارًا خائفًا أن يراني أحدًا.

لماذا أخاف؟

كنا نسمع دومًا أن كل إنسان مريض نفسي.

ومن ليس مريض نفسي فهو يحتاج أحدًا يسمعه.

وأن يتكلم أمامه كاشفًا جميع عوراته الشخصية دون الخوف أو التردد أو حتَّى استشعار الحرج.

ثمَّ من المفترض أننا كمتعلمين نعلم جيدًا أهمية العلاج النفسي ولكنها الموروثات.

ملعونة هذه العادات والتقاليد. نتوارثها كمثل الحمار يحمل أسفارًا.

رميت بنفسي على أول مقعد قابلني بعد أن أخبرت السكرتيرة

بقدومي وكعادتي اِنتزعت المجلة الراقدة على الترابيزة في غرفة الانتظار ودفنت رأسي بها لأهرب من النظرات المتطفلة.
لمْ أتبينْ الكلمات المتراصة أمامي فقد بلغ مني الإحراج مبلغًا كبيرًا. شعرت أنني أتصبب عرقًا وصوت أنفاسى يعلو ويهبط ويسمعه كل من كان حولي.
فبعد لحظات سأكون ممددًا على كرسي الاعتراف ويجلس الدكتور أمامي بيده كاسيت صغير يضعه بجانب رأسي مسجلًا كلماتي وكأنها دليل على اِختلالي النفسي والعقلي ولا يكتفي بذلك بل يمسك الدفتر، ويكتب أيضًا ملاحظاته.
صورة الدكتور النفسي المكررة باستمرار في مخيلتنا جميعًا كانت تظهر أمامي.
صورته تشعرني برهبة مخيفة، ولذلك قررت أن أولي هاربًا مع التأكيد على عدم العودة إلى هنا مرة أخرى بل، وعدم تكرار هذه التجربة أيضًا.
لمْ أسمعْ نداءها الأول على اِسمي ولكنني اِنتبهت في النداء الثاني الأستاذ إسماعيل العرابي قمت منتفضًا.
- أنا.
- اِتفضل الدكتور في انتظارك. نظرت حولي فلمْ أتبين أحدًا
كم مضى من الوقت؟ لا أعلم.
كنت أقدم قدمًا وأُأَخِر الأخرى.

وجدته كما تخيلته يرتدي زيًّا كلاسيكيًّا كاملًا بدلة ورابطة عنق، وبينهما صديريًّا من نفس لون البدلة، وكأنه مدعو لحفل في الأوبرا.

لماذا لا يرتدي ملابس مريحة؟

هل ليظهر بمظهر أكثر جدية ليجبر المريض على التكلم وضمان عدم الكذب من قبل المريض؟

سنرى!

نظر في الكشف الملقى أمامه موجهًا سؤاله إلى الأستاذ: إسماعيل العرابي؟ اِتفضل خير إن شاء الله؟

لمْ أنتبه لنفسي وأنا أتصبب عرقًا إلَّا وهو يمد يده تجاهي محملة بعلبة مناديل موجهًا كلامه إليّ أيضًا ولكنه بدا عليه بعض الاهتمام موجهًا نظراته تجاهي.

- اِتفضل.

كيف أتفضل من أين أبدأ؟

كأنَّه قذف بي في المحيط طالبًا أن أسبح للشط.

حسنًا سأبدأ.

(٢)

الفرق بين الحب، والتعود أو التكرار هو الشغف.

أسعد أوقاتي التي أقضيها في محلي أبيع، وأشتري كل ما هوغالي ونفيس فأنا عاشق للمجوهرات.

الشغف هو ما جعلني ناجحًا بل جعلني قصة نجاح يحكيها كل الناس.

أصبحت من نظرة أعرف المشتري وأميزه عن البائع.

أقف مزهوًا بنفسي عاشقًا لذاتي أتفحص المجوهرات بيد والأخرى تضرب على الألة الحاسبة بقوة في حالات البيع، وبرقة في حالات الشراء.

السعادة الذي اِستشعرها بالمحل لا يضاهيها سوى سعادتي، وأنا بين صبياني بالورشة نصنع ونشكل الذهب بأيدينا.

معاملتي مع الذهب كمعاملة عاشق لمعشوقته.

فأنا الأسطى الكبير وارث المهنة.

شخصيتي فى ورشتس تختلف تمامًا عن شخصيتي في بيتي أو مع أصدقائي.

لأنني كنت لا أرى نفسي سوى تاجر أسطى فنان قل كما تشاء.

يمر الوقت الجميل سريعًا فأعود إلى البيت متأخرًا، أجدها نائمة ولكنني للأسف أجدها في اِنتظارى فهي لا شغل لها سواي.

كان فنان من قال أن الرجل شغله الشاغل المال، والعمل وأن المرأة شغلها الشاغل الرجل!

ويدور الحوار اليومي

- إنت كل يوم تيجي متأخر عارف الساعة بقت كام؟
وتجاوب على سؤالها دون اِنتظار إجابتى الفجر قرب يأذن.
- يا مشيرة يا حبيبتي ريحي نفسك إنتِ المفروض عرفتي ظروف شغلي.
- وإنت هتحس بيا إزاي وإنت عندك اللي يشغلك مش زيي لا شغل ولا عيل يسليني.
كانت هذه طريقتها دائمًا للضغط عليّ في الأونة الأخيرة للنزول عن رغباتها.
- حاضر يا ستي قلتلك هفتحلك المحل اللي إنتِ عاوزاه بس إنتِ عارفه إن فلوسي كلها في السوق أَلِم مصاريني من السوق وهاعملك اللي إنتِ عاوزاه.
كنت أحاول منح نفسي فرصة لدراسة الجدوى جيدًا فعندما يكون الأمر له علاقة بالأعمال فأنا معروف أنني لا أندفع تجاه أي صفقة؛ لأن الصفقة المميزة تجذبك إليها أمَّا الصفقة العادية فيجب دراستها بهدوء.
أمَّا موضوع عدم اِنجابنا فهي تستخدمه بأسلوب لا يخلو من القذارة.
أنني أشعر دائمًا أن حياتي معها تمَّ بناؤها على المصلحة فقط.
المشاعر تُعْطَى بحساب الكلام الجيد أيضا بثمن.
إنَّها تتعامل معي كبنك متنقل تستغل حبي لها، وولعي بها

وعشقي إليها تستغل كل ذلك في كيفية الاستفادة من ورائي لماذا أغلب الناس تتعامل معي على أنني أبله؟

عندما أمر بظروف مشابهه أتذكره دائمًا يقف أمامي ينظر في عيني وينصحني.

رغم أنني كنت أشعر وقت وجوده بجانبي إنه بعيد عني ولكن كلماته كان تحيط بي من كل جانب.

أتذكر نصائحه باستمرار، وخصوصًا النصائح التي لها صلة بأكثر شيئان يعشقهم، وهم معاملته للنساء وحبه وإتقانه لعمله.

حتَّى أنني كلما أصادف صفقة مهمة، وبها ربح وافر أتذكر دائمًا المرة الوحيدة التي تمَّ فيها النصب عليه.

كان الجو حارًا وخانقًا وقفت سيارة مرسيدس سوداء اللون حديثة الصنع، وقد أغلقت باب المحلـ ونزل منها رجل تظهر عليه علامات الثراء يسبقه سائقه ليفتح له باب السيارة.

كان الرجل متأنقًا في بدلته البيضاء، ودخان السيجار الكوبي الفاخر يتصاعد أمام عينيه صانعًا سحابه بيضاء تحجب الرؤية عن وجهه لثواني معدودة ليقوم بعدها بملاحقة النفس الأول بنفس آخر ليقوم الدخان بنفس الدور السابق.

ما أن رأه أبي من وراء نظارته حتَّى هب واقفًا من على مكتبه، وتوجه لصالة البيع ليقوم بالتعامل المباشر مع الزبون الثري.

وكان أبي رحمه الله خبيرًا في التعامل مع هذه الفئة من الأغنياء،

وكانت كلماته ترن دائمًا في أذني.
أجعل كل زبون يتعامل معك يشعر وكأنَّه صاحب المحل.
فالغني يريد أن يشعر أنَّه بماله يستطيع شراء المحل وشرائك أيضًا فلا بأس بأن تشعره بذلك.
أمَّا الفقير فيريد أن يشعر أنَّه ذي قيمة فليس معنى أنَّه يشتري شيئًا قليلًا ورخيصًا أنَّك لن تربح من وراءه بل على العكس تمامًا، فمن الممكن أن تربح منه أكثر من الغني وليس الربح هنا فيما سيشتريه منك بل فيما سيبيعك أيَّاه!!
وما لبث إن وقف أمام الثري، ونظر في عينيه فعلم أنَّه يبحث عن شيءٍ ثمين.
فقد كان حدسه ممتازًا.
فعندما نطق الرجل تبين من لهجته أنَّه ثري عربي ثمَّ علم منه والدي أنَّه يبحث عن هديه ثمينة ليهديها إلى زوجته التي تَهْوى المجوهرات النادرة والنفيسة.
ظل والدي يحاول إقناعه بالشراء ويعرض عليه جميع بضائعه، ولكنه مصمم على شراء شيئًا نادرا وكأنَّه يعلم بإخفاء والدي لشيء غامض وقد كان حدسه ممتازًا أيضًا.
وعندها أبدى الثري اِمتعاضه فهب واقفًا للانصراف.
ظل والدي ينظر إليه ويتفرسه قبل أن يطلب منه مهلة لخمس دقائق قائلًا له:

أستأذن سموك على ما تشرب فنجان القهوة بتاعك أكون حضرتلك طلبك.
فتح خزنته الصغيرة التي لا يعلم بوجودها غيره وأخرج جوهرته التي لا تقدر بثمن هل كان يقصد والدي تأخير ظهور الجوهرة ليتأكد من جدية المشتري؟ أم تأخير الظهور لعدم ثقته الكاملة فيه؟
كانت جوهرته ترقد بداخل علبة من القطيفة باهظة الثمن لتكون على قدر المسئولية الملقاة على عاتقها في حفظ هذه الجوهرة النادرة
وعندما فتح العلبة أمام عيني الثري وجد الدهشة تعلو ملامحه. وكيف لا يندهش وهي الدرة النادرة.
كانت قطعة من الألماس الحر مصنوعة بعناية لونها وردي مسروقة من مقبرة فرعونية مِمَّا يعني أنه ليس لها مثيل بالعالم.
الثري يقلبها بيديه ثمَّ تناول منظار المجوهرات ناظرًا بها متفحصًا كأنه خبير مجوهرات، وليس مجرد ثري يبحث عن جوهرة نادرة لإهدائها لزوجته.
تمت الصفقة ولمْ يتبقَ سوى تحصيل المبلغ الذي لمْ يعترضْ الثري عليه إطلاقًا رغم مبالغة والدي فيه.
فقام الثري بتحرير شيك بالمبلغ ولكن والدي الذي كان حريصًا للغاية ولا تعرف الثقة مجالًا في نفسه وقع في حيرة من أمره أيرفض

تحصيل الشيك والمطالبة بالقيمة كاش، وهذا به إحراج للثري الذي لا يريد والدي خسارته، أم يستلم الشيك قابلًا للمغامرة من وجود الشيك بدون رصيد!

تنحى والدي جانبًا ممسكًا بجوهرته متعللًا بتحضيرها للثري، وقام بالاتصال بمدير البنك والذي كان صديقًا لوالدي متسائلًا فطلب منه مدير البنك إرسال الشيك للكشف عنه ووضعه بحسابه مر الوقت بطيئًا حتَّى رن جرس الهاتف كان مدير البنك على الخط وأخبر والدي بأن الشيك سليم ومغطى بالكامل وتمَّ وضعه بحسابه.

وحينها أخذ الثري جوهرته وذهب.

جلس والدي فترة من الوقت مستغرقًا في التفكير غير مصدقًا ما حدث حتَّى وأنَّه ولأول مرة قام بعزومة كبيرة لجميع عمال المحل والورشة احتفالًا ببيع جوهرة نادرة وتحقيق ربح خيالي.

مرت فترة ليست بقصيرة كادت أن تتراوح بين ثلاثة لأربعة أشهر أو يزيد قليلًا حتَّى وجدناه أمامنا.

نفس السيارة المرسيدس السوداء اللون حديثة الصنع وقد أغلقت باب المحل أيضًا، ونزل منها نفس الرجل الثري الذي دائمًا يسبقه سائقه ليفتح له باب السيارة.

كان الرجل متأنقًا كما في مرته السابقة يرتدي بدلة سوداء فوق صديري أنيق، ودخان السيجار الكوبي الفاخر يتصاعد أمام عينيه

صانعًا سحابه بيضاء تحجب الرؤية عن وجهه لثواني معدودة ليقوم بعدها بملاحقة النفس الأول بنفس آخر ليقوم الدخان بنفس الدور السابق.
كان كأنَّه مشهد يتكرر.
هب والدي واقفًا لاستقباله وفي رأسه مليون سؤال!
ما أتى بهذا الثري مرة أخرى؟ هل يريد اِسترجاع أمواله وإعادة الماسة؟
ولكنني لن أقبل برد الأموال ثمَّ أنَّها ماسة نادرة ومسروقة من مقبرة مِمَّا يعني أن اللغط حولها سيوقع بنا جميعًا فمثل هذه الأشياء تشترى وتباع في سرية تامة.
ولكن سنرى.
اقترب منه والدي مرحبًا به كعادته مع الزبائن جميعًا، ولكنه خصه ببعض الحفاوة الزائدة.
جلس الثري لثواني معدودة لا يتكلم حتَّى ساد الصمت بالمكان نفخ سيجارته وأخيراً نطق.
أخبر والدي أنَّه من يوم شراؤه للماسة، وهو يتعرض من المضايقات بسبب أن أخت زوجته وهي متزوجة من رجل أغنى منه بكثير تريد شراء الماسة بأي ثمن وزوجتي متمسكة بها لأبعد حد وزوج أخت زوجتي يضغط عليّ لشرائها.
فقال له والدي ما المطلوب مني كي أفعله وأجنبك الضغط.

أخبره بأن الحل الوحيد للخروج من هذا الموقف هو البحث عن ماسة مثلها تمامًا، وشرائها بأي ثمن وإهدائها لأخت زوجته.
فأخبره والدي أن ذلك مستحيل لأنها ماسة لمْ يرَ مثلها، وهو يعلم تمام العلم أنه لا يوجد مثيل لها.
نهض الثري وملامحه يكسوها الغضب والحزن وأعطى والدي الكارت الشخصي لكي يحادثه لو صادفته مثل الماسة النادرة.
مرت الأيام بطيئة على والدي كنت أصحو من نومي أراه يتأمل صور الماسة ويمنى نفسه بمثلها، فيستطيع بيعها للثري بضعف ثمنها.
ولكن كيف وهي لا يوجد مثلها؟
مر ما يقارب العشرة أيَّام قبل أن يستقبل والدي مكالمة قلبت حياته رأسًا على عقب.
كانت المكالمة من جواهرجي صديق والدي ويمتلك ورشة مجوهرات ولكنها في صعيد مصر أخبره خلالها بأنه أتاه زبون كان ينقب عن الآثار ووجد ماسة شبيهه لماسة والدي فقد كان والدي أخبر جميع أصدقاؤه بأنه لا أتى لأحدهم ماسة فرعونية معروضة للبيع شبيهه لماسته يخبره سريعًا وأعطى كلًا منهم صورة للماسة.
توجه والدي بأقصى سرعته لصعيد مصر لمعاينة الماسة، وعندما وصل اِتصل صديقه بالبائع الذي أتى مرتديًا جلبابًا صعيديًا، ولكن يظهر من ملامحه ونظافة ثيابه أنَّه بسيط الحال كان يتلفت يمينًا

ويسارًا، وكان معه اِثنان على نفس هيئته يحملون أسلحة تظهر على ملامحهم الشراسة.
عاين أبي الماسة فوجدها كتوأم للماسة المباعة للثري العربي حاول أبي بخس سعرها، ولكن البائع هذه المرة كان يعلم قيمة ما يملكه فأصر على بيعها بأكثر من مرة ونصف سعرها الذي باعها والدي للثري العربي.
أجرى والدي مكالمة للثري العربي ليعلمه أنَّه وجدها فجاوبه الثري بضرورة شرائها بأي ثمن وأخبره أيضًا بأنَّه موجود بدولته وسيأتي غدًا أو بعد غد، وسيتوجه من المطار مباشرًا لوالدي لشراء الماسة.
اشترى والدي الماسة ورجع القاهرة والماسة لمْ تفارق حضنه والمال لا يفارق خياله.
كان كل همه كم سيبيعها للثري؟
مر الغد وبعد الغد وقد حاول والدي مكالمة الثري أكثر من مرة ولكن لا مجيب!!!
عندها علم والدي أنه أشترى ماسته الأولى وقد خسر نصف ثمنها!!

(٣)

كنت ممددًا أنظر إلى السقف لمْ يشدني إليه سوى أنه كالح اللون وفي أقصى الزاوية اليمنى يعشش عنكبوت صغير ينسج خيوطه في

صمت، ودأب فهو كائن لا يمل من نسج الخيوط خطوط عرضية وطولية في نسق مميز.
غريب أمر هذه الحشرات رغم اِشمئزازنا منها فلا نملك سوى الانحناء أمام إصرارها وتفانيها في عملها والذي نفتقده نحن معشر البشر الذي فضلنا الله سبحانه على المخلوقات جميعًا ولكننا نسينا، وتناسينا حتَّى سبقتنا الحيوانات، والحشرات.
قطع حبل أفكاري صوته الجهور كان يتكلم وكأنَّه يتجشأ.
- أيوه يا أستاذ إسماعيل تحب نبدأ منين؟
وقبل أن أجيب وكأنه قدري إن يتم سؤالي وتتم الإجابة بنفس الوقت وكأن إجابتى لا تعني شيئًا سوى لنفسي فقط.
قاطعني قائلًا أنا بفضل نبدأ من الطفولة.
اِسترجاع الذكريات دائمًا ما يكون لذيذًا هكذا حدثتني نفسي.
نسترجع أحاسيس لمْ تعدْ تنبت مشاعر فقد نسيها الزمن وهي بدورها نسيت الزمن.
ولكن هذا لا يمنع أنني سأضطر أيضًا لسرد تفاصيل عفا عليها الزمن وأحاول أن أقذف بها من ذاكرتي. سأضطر أن أسترجعها من غياهب النسيان.
ولكن لا بأس إن كان ذلك سيساعد في شفائي.
أرخيت عيني أو تراخت مرغمة بفعل الإضاءة الضعيفة، وحالة السكون، والهدوء التي أشعرني بها ذلك الكائن الجالس بجواري

ولا أشعر بوجوده.
هل ذلك بفعل حالة الصفاء الذهني الذي أشعر بها أم بفعل المشروب الدافئ الذي تناولته منذ ثواني قريبة.
إنه بطعم الينسون، ولكنه فعل بي الأفاعيل.
حالة خدر تسري بأوصالي تخرج الكلمات مني دون إدراك أتذكر أزمان بعيدة بكامل تفاصيلها، وكأنَّها تحدث أمام ناظري.
- ولدت طفلًا محظوظًا وحيدًا لأب يملك من المال الكثير فهو أشهر جواهرجي بالمدينة التي نقطنها طيب السمعة سمح يحب الناس ويحبه الناس.
كانت كل طلباتي أوامر لا يجوز رفضها أو حتَّى تأجيلها فهي أوامر نافذة.
كان كل ما يحيط بي في متناول يديّ ومع ذلك لمْ أكن مدلل عنده فهو صارم معي حتَّى أنشأ رجلًا يكمل مسيرته التي بدأها وحده دون مساعدة.
ولكنني رغم ذلك كنت أعتبره ماكينة صراف آلي متنقلة كنت رغم حبه لي لا أشعر بتأثيره في حياتي.
هل ذلك بسبب غيابه المستمر عن البيت أمَّا بداعي السفر أو بداعي محلاته وورشه.
كانت وحدها أمي هي محور الحياة كانت تعتبرني هدفها ووسيلتها لبلوغ الهدف.

جميع أحداث حياتي تكون حاضرة فيها فأنا أتذكر أول خطاب فصل من المدرسة وأتذكر إحساسي يومها بأنها ستكون نهاية عالمي الذى لمْ يبدأْ بعد وكانت ستكون نهاية العالم حقًا لو علم والدي ولكنها كانت دائمًا معي في جميع نكساتي قبل فرحتى اِحتوتني ومرت الأزمة.

ولمْ أنسَ لها أول دقة في قلبي حب الطفولة عندما صارحتها.

كنت مستغرقًا في الحكي ناظرًا للسقف كالح اللون متمعنًا في حركة العنكبوت الذي ما زال ينسج خيوطه في صمت ودأب.

وعندها رن جرس التليفون اِستفقت متذكرًا تنبيه الدكتور لي بأن أجعل الهاتف صامتًا ووجدته ناظرًا تجاهي في صمت بنظرة باردة!

وجدتها مشيرة أغلقت الهاتف معتذرًا ومعللًا بأنني نسيت ولكنني كنت لا أريد الرد على مشيرة لأنني سأضطر للكذب لأنني لمْ أجدْ لديّ الجرأة لمصارحتها بأنني أرتاد عيادة للعلاج النفسي.

وعندها أدرك الدكتور الذي لمْ أسمعْ صوته سوى ثواني معددوة فأنا من تكلم حتَّى جف حلقي.

شعرت ببعض الإحراج عندما لمح قطرات العرق تنساب في خطوط طولية على جبيني.

أستأذنته في الانصراف لأنني أشعر بالإنهاك.

وهو بدوره رحب بانصرافي رغم أن العيادة كانت شبه فارغة.

(٤)

كنا جلوسا وأمامنا أوراق الكوتشينة.

كنت أحب لقائهم فهم ما تبقى لي بالحياة أشعر وأنا معهم بطفولتي وشبابي.

كانوا وما زالوا مرآتي.

فوجئت به وهو أكثرهم قربًا مني.

- أدهم : لو سمحت يا سمعه صب لي كاس.

- أنا: أدهم إنت عارفني أنا ما بحبش الزفت ده لا بشربه، ولا بصبه لحد.

- أدهم وقد بدت عليه السخرية: اه يا سيدي نسيت حقك عليَّا صبلي إنت يا (كيفو).

- أنا : إنت مش ناوي تبطل شرب بقى إنت مش وعدتني قبل كده؟

- أدهم: أنا مش عاوز أبطل!

- إنت بتكدب على نفسك بص لنفسك في المرايا شكلك بقى عامل إزاي!

وقد خرجت الكلمة مني دون قصد كالرصاصة، ولا يمكن إعادتها لمكانها مرة أخرى.

- ماله شكلي يا أستاذ إسماعيل بص إنت في المرايا وشوف شكلك إنت عامل إزاي!

كانوا يتابعوننا وتمنيت للحظة أن يتدخلوا حتَّى لا أخطأ في حقه مرة أخرى.

- حاولت أن أمتلك نفسي عن الغضب: الله يسامحك بس مش ده موضوعنا. إنت ليه يا أخي عاوز تموت نفسك.

- أدهم وقد هدأت نبرة صوته ووصلت لأقل درجاتها وكأنَّه يحدث نفسه تكلم هو ينظر للكأس المملوء بيده ويتجرعها دفعة واحدة... اه نفسي أموت بس عشان تموت لازم تكون جريء وأنا جبان.

شعرت بأنَّه من واجبي اِحتضانه والبكاء معه على حاله ولكنني أصررت على إكمال الحوار عله يكون ذي فائدة

– كنت مصرًا على الضغط عليه بدافع حبي لصديق طفولتي: أحمد ربنا إنت أحسن من غيرك.

- حينها أنفجر كبركان غاضب يضرب الترابيزة بكلتا يديه محدثًا صوتًا عاليًا تتطاير معه الأوراق على الأرض، وكذلك زجاجة الخمر ولم يلتفت إليها أحد اِنتفضت رغمًا عني، ولكن ذلك لمْ يمنعْ أدهم من مواصلة حديثة بنفس درجة الانفعال!

لأ يا إسماعيل أنا مش أحسن من حد كل الناس أحسن مني.

يضرب الكرسي بقدمه ويخطو نحو الباب فتحه وخرج وأغلقه

خلفه بقوة لننتفض جميعًا مرة أخرى ويقول أحدهم موجهًا حديثه لي:

تقلت عليه يا إسماعيل المرة دي.

- أنا بحبه وخايف عليه.

كنت أعرف أدهم أكثر مِمَّا يعرفه غيري.

انصراف.

(٥)

اِجعل بينك وبين من تحب خطوة إن اقترب اِبتعدت وإن اِبتعد خطوت نحوه.

هل حبي لها هو ما يجعلها تعاملني بهذا الكم من الجفاء؟

هل اِنشغالى الدائم بالعمل، والغياب أغلب فترات اليوم جعل الفتور يتسلل لعلاقتنا؟

عرفتها وأحببتها وأنا صغيرًا.

أول لقاء لنا كان في بيتنا فهي ابنة عمي كنت أميل إليها أحب الحديث معها.

ولكنني أعلم أنها تنظر تجاهي نظرة أخ حتَّى أنها ونحن صغارًا صارحتني بحبها لابن خالتها.

يومها بكيت حتَّى تورمت عيني بكيت كما لمْ أبكِ من قبل، ولم

أبك بعدها بنفس القوة.
فقد نويت أن يكون شاغلي العمل، وكسب المال حتَّى أثبت لها أنَّها مخطئة في اِختيارها.
ولكن حقيقةً ما كان يشدها إلى ابن خالتها ليس المال، ولكن أنَّها كانت تشعر أنه رجل كما قالت وقتها ولمْ أنسَ هذا التعبير ما حييت.
أفقت من تفكيري على صوت الخادمة تناديني:
- يا أستاذ إسماعيل قهوة حضرتك جاهزة.
أجبتها من خلف الباب الموصد حاضر جاي فقد كانت مشيرة زوجتي دائمة التنبيه عليها بعدم اِقتحامها لباب غرفة نومي تحت أي ظروف.
هل كان ذلك بداعي الغيرة؟!. أشك.
خرجت ولما سألتها عن مشيرة فاجأتني أنها ذهبت للنادي صباحًا.
الحقيقة أنني لمْ أتفاجأ لأنها أصبحت عادتها في الأونة الأخيرة، فقد اِعتادت عدم الاهتمام بي بدعوة أنني منشغل عنها، ولكنه كان أسلوب رخيص منها للضغط عليّ مع أنني وعدتها بأنها ستسافر معي المرة القادمة إلى أوروبا لتشاهد أحدث خطوط الموضة هناك، وسنسافر إلى لندن بالقطار لنعيد ذكريات شهر العسل.
ولكنني في حقيقة الأمر كان لديّ صفقة عمل في فرنسا، وكانت

ستذهب معي في فرصة لإرضائها فأنا حقًا أحبها.
شربت قهوتي واِرتديت ملابسي وذهبت للورشة قبل ذهابي للمحل.
بعد متابعة الصنايعية بالورشة مررت بالمحل لمتابعة عمليات البيع، والشراء.
كنت جالسًا على مكتبي أتابع كاميرات المراقبة كعادتي، وعند اِستشعار عملية بيع أو شراء ثقيلة أذهب بنفسي لأنهيها.
فأنا مشهور بقدرتي على بيع ما لا يباع وشراء كل ما هو ثمين.
وجدت زبونة تحاول بيع عقد أيقنت من أول نظرة في شاشة المراقبة أنَّه عقد أثرى أو ما شابه كانت دائمة الالتفاف حولها نظرتها ليست ثابتة على البائع أمامها، وكانت تلتفت كمن يحاول الهرب من نظرات من حوله.
وعندما أخبرت البائع برغبتها في البيع وجدتني أمامها أزيح البائع بيديّ متظاهرًا بمعرفتي بالزبونة حتَّى تطمئن، ولزيادة الطمانينة طلبت لها كوبًا مثلجًا من الليمون.
أفرغت الكوب على دفعتين وما زالت تلهث.
شعرت وقتها أن بالأمر شيئًا تكلمنا حتَّى ذاب جبل الجليد الذي يجثو على صدرها.
في بادئ الأمر أعلمتني بأنها لا تريد بيع العقد، ولكنها تريد تثمينه فقط.

حين لمست أناملي العقد أحسست بأن تيار كهربائي تمَّ توصيله بأطرافي قشعريرة سرت بجسدي.
لمْ أبدئ اِهتمام بالأمر وضعت العقد على الميزان، وقد عزمت النية على شراؤه بأي سعر فهو يبدو كعقد أثري لا يقدر بثمن.
قرأت الوزن المدرج على شاشة الميزان، وتلقائيًّا تحركت يديّ لتتناول الآلة الحاسبة وتضرب الأرقام بقوة حاسبًا الوزن مضروبًا في السعر مطروحًا منه الدمغة متجاهلًا المصنعية التي لا تقدر بآية أموال عارضًا عليها قيمة العقد، وكأنه ذهب وأحجار كريمة فقط.
لمْ تخرجْ قبل شرائي للعقد بثمنه ذهب فقط وأيضا لمْ أدفعْ مقابل العقد مال بل دفعت بدلًا منه ذهب بعد إقناعها بقدوم بضاعة جديدة بموديلات حديثة وارد من أوروبا في الحقيقة لمْ أكن أكذب فعادتي في البيع والشراء عدم الكذب، ولكن تصيد الفرص.
اليوم يوم جميل اِشتريت عقدًا أثريًا ولم أدفع مقابله مال بل أبدلته بذهب عادي فربحت.
بدأت اليوم متجاهلًا من قبل زوجتي وتوسطته عملية بيع وشراء رابحة وسأختمه بزيارة لطبيب نفسي ليس من أجل علاجي، ولكن من أجل أن يسمعني أحدًا.
حتَّى لو اِضطرت لدفع مقابل له ليس لشيء سوى ليسمعني.

(٦)

أفضل فتراتنا عندما نتحدث ولا ننتظر إجابة.
فقط نتحدث.
في عيادة الطبيب النفسي
وجدتني ممددًا على الكرسي المائل للخلف أُنظر للسقف الكالح وأخذت أبحث عن صديقي العنكبوت الذي اِختفى فجأة.
هل قام أحدهم بتنظيف السقف باهت اللون، وقتل العنكبوت؟
كنت قد عقدت النية المرة الفائتة ألَّا أعود إلى ذلك الدكتور مرة أخرى ذلك الدكتور باهت الحديث الذي يتخفى خلف نظارة طبية سميكة تخفي نظراته الحادة، والتي تشعرك بأنَّه يبحث في أعماقك على شيء يرضي به خياله المريض وليثبت لك أنك مريض وأن كل قرش دفعته لمرضته حلال.
تلك الممرضة التي تستفزك بابتسامة بلهاء تقابلك بها ممدة يدها لتأخذ منك قيمة الكشف، قبل حتَّى أن تدون اِسمك في كشف المرضى المُلقى بعدم اِهتمام على مكتبها البائس.
ولكن ما أعادني حقًا هو حسن اِستماعه أو اِحتياجي المستمر للحديث فهو إحساس بأنني يجب أن أتكلم وبدون تكلف، ولكن ينقصني الطرف الآخر.
الطرف الأهم في العلاقة وهو الطرف المستمع.

ففي البيت توجد زوجتي العزيزة المبتزة التي تبحث في عيوني عن أموال أو مزايا.
دائمًا ما أشعر أنني بالنسبة إليها دفتر شيكات رغم حبي الظاهر والباطن لها.
ولو حكيت لها ما أحكيه للدكتور البائس لقامت الدنيا ولم تقعد ولوجدت في حديثي ما يستجوب كثيرًا من المشاحنات، ولكانت خرجت كعادتها ببعض الانتصارات.
وفي العمل علمني والدي ألَّا أصاحب أحدًا فالعمل للعمل فقط الكل أمَّا عمال لديّ أو زبائن أبيع لهم، واشتري منهم ولا يجوز أن أَقترب أو أحب أحدهم.
أمَّا أصدقاء الطفولة فهم يحبونني، ولكن لا يستطيع أحدهم سماعي أو الاستماع إليّ فكل منهم مشاكله التي تغرقه حتَّى أذنيه.
كما أنَّهم تعودوا مني أن أسمعهم، ولم يتعودوا ـن يسمعني أحدهم، ولو من باب حسن الأداب.
شعرت حينها أنك حينما تجد أحدًا يسمعك فهذه نعمة كبيرة.
ثمَّ أنه لا يوجد طرف يستحق سماع قصتي كاملة.
فبداخل كل قصة زوايا مظلمة من المفترض ألَّا يعرفها أحدهم.
فعلاقتي بمشيرة لا بد ألَّا يعلم بها أحدًا من الأصدقاء.
الأسرار بين أبي وأمي سرًا على مشيرة.

ولذلك كان لا بد اللجوء لدكتور لا يعرفني كل مهنته أن يسمعني دون تعقيب حتَّى أنني لا أريد أن يكتب لي على علاج، ولو كنت وجدت أحدًا يسمعني ويهتم لأمري ما كنت هنا اليوم.

ما هي سوى دقائق معدودة حتَّى وجدت بيديّ المشروب السحري الذي ينقلني من عيادة بائسة جدرانها كالحة وإضائتها ضعيفة باهتة إلى عالم من الهدوء، والصفاء النفسي.

أخذ المشروب يسري بعروقي مجرى الدم مرورًا بأعصابي ليسكنها، ويفعل بها مفعول البنج وصولًا لعقلي يخدره هو الآخر ويجعل لساني منطلق بما يجول بخاطري.

- الدكتور بعد أن قام بضغط الزر الأحمر في الكاسيت الصغير ووضعه بجانبي، ولمْ يكتفِ بتسجيله لكل كلمة تخرج من فمي بل أمسك بورقة من مفكرته، وقلم ليسجل كل شاردة وواردة.

- هاه يا أستاذ إسماعيل اِنتهينا فين المرة اللي فاتت؟

- أنا وقد كنت متذكرًا كل كلمة من حوارنا السابق اِنتهينا عند أمي...

- الدكتور: اِتفضل.

- لمْ أَنسَ أول حب في حياتي كنت طفلًا وكانت جارتي أحببتها حبًا عذريًّا، وكان الحب مدرجًا بقاموس والدي في خانة المحرمات!

فتكتمت أمي على الخبر العظيم؛ لأنه لو علم بالأمر لكنت الآن في عداد شهداء الحب الأول.

وللحق فقد عالجت أمي تصريحي الخطير بالحب أفضل علاج فلن أنسى لها أنها أخذتني فى أعماق أحضانها وأبلغتني أن جارتي هي بمثابة أختًا لي وأن الحب لا يكون سوى للكبار فقط وأن هناك أنواع من الحب أشدهم رقي هو حب الله، وحب الوالدين وحب زوجتي فقط وذلك هي الخطوط المسموح فقط بتجاوزها، وغير ذلك فهو من المحرمات التي تغضب الله وبسببها ينزل علينا أشد أنواع العذاب.

كانت طريقتها في الحديث عذبة، وساحرة عكس والدي الذي تربى على الأوامر يأمر فيطاع ويؤتمر فيطيع.

كنت أراها دائمًا الملاك الذي يرفرف بجناحيه في بيتنا فيغمره بالحنان والحب وكنت أشعر دومًا بأن الله سبحانه يزيد والدي في الرزق بسببها.

وكان رحمه الله يعاملها معاملة طيبة رغم أنَّه لا يظهر لها، ولنا ذلك وهي للحق لمْ تشعرنا أنها تنتظر ذلك رغم أنها كأي اِمرأة تهزمها كلمة.

كان جاف المعاملة، ولكنه للحق يهتم بالتفاصيل وهي الأشياء التي تعشقها السيدات، وخصوصًا الشرقيات منهن بحكم أنهن يستشعرون الإهمال دومًا وغياب التفاصيل الدقيقة من حياتهن فمن طفولتهن لا يتذكر أحدهم عيد ميلادهن فلا توجد اِحتفالات ولا هدايا والورود كانت دائمًا شيئًا ثانويًّا للرجال أساسيًّا لهن.

ولكن للحق كان والدي أستاذًا في ذلك فهو بمقدوره أن يجعل أي شخص يحبه خصوصًا السيدات بدءًا من إخواته البنات، وجميع أقاربه وحتَّى جاراتنا كانتا تحسدن أمي على وجودها بحياة هذا الرجل.

ولكن كالعادة دائمًا للإنسان وجهان وجه يظهره أمام الناس والآخر يحتفظ به لنفسه، ولا يظهره سوى بالصدفة أو يظهر طواعية أمام من لا نستطيع إخفاء طباعنا أمامهم خصوصًا الطباع الشريرة.

اِنتبهت أنني ما زلت أتكلم في حين أن الشريط الذي يقوم بتسجيل ما أقول انتهى.

أفقت على صوت الدكتور يقوم بتغيير الشريط فشعرت بصداع ينهش خلفية رأسي.

كمْ يتسفزني هذا الكائن المسمى زورًا دكتور.

ملامحه ساكنة وجامدة لا تتحرك لا يملك دماء تتحرك بوجهه لا يظهر على ملامحه أنَّه متجاوب معي.

أستأذنته بالانصراف ولكنني كنت بحاجة إلى كوب من مشروبه السحري؛ لأن أعصابي كانت مضطربة من فرط ما تكلمت

قابل طلبي بضحكة تنم عن سخرية مكتومة من طلبي معللًا ابتسامته أن المشروب ما هو إلا ينسون عادي.

لكن أمام إلحاحي ولكي يثبت صحة كلامه طلب من الممرضة

كوبًا من الينسون على أن أشربه خارج غرفة الكشف.
أخذت أرتشف الينسون متململًا للممرضة ناظرًا عليها، ولم يكن بالعيادة غيرنا، ولكن للحقيقة أنني كنت ناظرًا باتجاهها، ولا أراها فقد كنت منهكًا حقًا.
نظراتي زائغة، وأتصب عرقًا وما زلت ألهث.
كنت أرتشف من الينسون ولا أشعر بالخدر يسري بعقلي فما زلت ألهث وما زال العرق يزداد.
علمت وقتها أن السر ليس بالمشروب، ولكنه في حالة الاسترخاء المصحوبة بهدوء المكان يزيدها هدوءًا صوت موسيقى ناعمة تسحبك سحبًا لعالم آخر.
علمت وقتها أن هناك عوالم كثيرة غير عالمنا الذي نقبع به.
عوالم تستحق أن نهرب إليها، ونسكن بها عوالم بها الراحة مسموحة يسودها الهدوء تلفحها نسمات من هواء بارد.
اِنتهيت من المشروب شاكرًا إياها وانصرفت.

(٧)

الفصال.
أسوء اِختراع بشري.
لأنه يعلمنا يا إمَّا نشتري الأشياء بأكثر من قيمتها.

أو أننا نبخس الناس أشيائهم.
وأسوأ أنواع الفصال الفصال في الحب.
أجلس على مكتبي الفاخر أمام شاشة تلفاز كبيرة مقسمة إلى مربعات متوسطة الحجم كل مربع يحتوي على صورة متحركة مِمَّا يحدث بالخارج.
فالمربعات من الأول للرابع بث حي ومباشر مِمَّا يحدث بالورشة، والمربع الخامس مدخل المحل، والسادس كاشفًا المحل وجميع الباعة فهو موصول بكاميرا بانوراما.
فلا يوجد جزء بالمحل غير مغطى رقابيًّا.
وقد كلفني نظام المراقبة مالًا كثيرًا ولكن لا بأس فأنا أكون بالمكتب وكأنني أعيش مع أفرادي بكل مكان.
ولكن أهم كاميرات عندي والتي تعمل على النظام الآخر وهي كاميرات مثبتة بالبيت، ولا يعلم أحدًا بوجودها ولا حتَّى مشيرة.
وهي الكاميرات الموضوعة ليست بغرض المراقبة بقدر وجودها بغرض الاطمئنان عليها، وعندما أشعر بالاشتياق إليها لا يمنعني شيئًا عن متابعتها.
وعندها تذكرت مشيرة أو خطرت ببالي فأدرت النظام لتوجيهه إلى البث المباشر من داخل الفيلا لأراها فوجدتها تجلس منكمشة بداخل كرسيًّا كبيرًا هزازًا تمسك بيدها كوبًا مليئًا بالنسكافية، وتتحدث بالهاتف بصوت مسموع عندما نظرت إلى اِنعكاس

صورتها على الشاشة شعرت بقشعريرة تسرى بجسدي.
كم أحبك يا امرأة، ولكن يا ترى مع من تتحدث؟
سمعت صوتها تحادث إحداهن.
- لا وحياتك هيوافق يعني هيوافق، وبعدين يا حبيبتي أنا حطيت عيني على المحل خلاص مش فاضل غير أسافر أتفق على البضاعة وأبدأ بقى.
استرحت على الكرسى أطلقت زفيرًا بصوت مسموع مصحوبًا بابتسامة مال الكرسي للخلف، فلمحت بطرف عيني سقف غرفة المكتب فتذكرت الدكتور البائس، وسقف عيادته الباهت.
وتذكرت المشروب السحري الذي ينقلني من عالمي إلى عالم آخر مليء بالاسترخاء والسكون.
ناديت على أحد صبياني ليأتيني بكوب من الينسون لعليّ أجد نفس المذاق، ونفس التأثير وليأخذني إلى سبل الراحة.
كان الينسون غير الينسون والتأثير مختلف أيضًا.

(٨)

الجميع يشهد أنني مفاوض من الدرجة الأولى واستحالة دخولي مفاوضات خاصة بمجال المال والأعمال وأخرج منها خاسرًا،
ولكن التفاوض هذه المرة مختلف كليًّا فهو مع من تملك قلبي

وعقلي وتفكيري.
كنت أحب دائمًا مفاجأتها كعادة الرجال الغربيين الأكثر رومانسية من نظرائهم بالعالم الشرقي والذي ما زالوا يعيشون بقرون مضت وعفا عليها الزمان.
عندما رأيتها وجدتها بأبهى زينتها ترتدي فستان أسودًا لامعًا يكاد يضيء بالظلام.
وجدت عشاءً فاخرًا محاط بالشموع إذًا فهي ليلة أشبه بليالي ألف ليلة وليلة.
أكلنا وضحكنا وجلسنا ملتصقين ببعضنا البعض كان تغوص في حضني، وكانت تجلس على قدمي وأنفاسنا مختلطة لا نعلم من يستنشق الأكسجين ومن يخرج الكربون وفي عز هذه الرومانسية أخرجت تذكرتين سفر وضعتهم أمام ناظريها أطلقت ضحكة ممزوجة بصراخ ممتع كدت أسمع صوت دقات قلبها، وهي تمسك بالتذاكر وتتأكد أن الرحلة موجهه لباريس كما هو مكتوب على التذاكر.
قبلتني قبلة طويلة وشدتني إلى غرفة النوم منحتني نفسها كما لمْ تفعلْ من قبل.
كانت تقبلني فكنت أشعر بسائل فمها كالعسل يذوب بفمي.
كنت أشعر على غير عادتها أنَّها منتشية تتلوى أمامي.
هل هذا اِنتشاء اللقاء أم اِنتشاء باريس؟

(٩)

كان لا بد قبل السفر من مقابلة أصدقاء طفولتي ومقابلة الدكتور الذي بدأت أحبه ليس لشيء سوى لأنه الوحيد القادر على سماعي بدون تذمر حتَّى وإن كان ذلك هو عمله وهو ما يتقاضى عنه المال الذي ينفقه بكل سعادة دون تذكر ذلك الرجل البدين البائس، والذي نام أمامه أكثر من ساعة يتكلم ويحكي عن أناس هو لا يعرفهم.

اِتصلت بهم على أن نجتمع عند سمسم مساءً.

كانت الجلسة مصممة على اللعب كعادتنا، ولكن اليوم لا أريد اللعب كنت أريد أن أودعهم.

وجدت بعيونهم نظرة مختلفة قليلًا.

أدهم كانت عيونه تشع نورًا كأنَّه يمر بأيام سعيدة فأنا أتمنى له العيش في سعادة؛ لأنه مر بأيَّام في غاية الصعوبة فمنذ وفاة زوجته وابنته أمام ناظره، وهو يعيش فترة صعبة جدًا.

شعرت ببعض السعادة من أجله ولكن يا ترى اللمعة الظاهرة بعيونه ما سببها؟

ولكن على النقيض تمامًا كان وجه كريم أو كيفو كما يحلو لنا مناداته كان وجهه يشع حزنًا فهو منذ طفولتنا، وهو يحمل ملامح

خشنة وكأن الزمن ترك بصمته على وجه هذا الرجل.
أمَّا سمسم فكان مشرق كعادته الابتسامة لا تفارق شفتيه.
جلسنا وتحادثنا هم شربوا وأنا أكلت.
تذكرنا الأيام الخوالي، وتذكرنا أيام الطفولة، وتذكرنا الشقة التي قمنا باستجارئها لثلاثة ليالٍ.
وذكرتهم بمحاولة سمسم اِستئجار فتاة لتقوم بقضاء الليل معنا وضحكنا وذكرنا سمسم بأنني كنت أجمع منهم المال للإنفاق فقمت بإنفاق جميع ما جمعناه من مال على الأكل فقط فتعالت الضحكات.
وذكرتهم أيضًا أننا تواعدنا على تكرار هذه السفرية مرة أخرى على أن نحاول اِستئجار نفس الشقة لمحاولة منا لاسترجاع الماضي.
اِنصرفت بعد إخبارهم بأنني مسافر إلى أوروبا في رحلة عمل قد تستغرق أسبوعًا على الأكثر سائلًا إياهم إن كان يحتاج أحدهما شيئًا من باريس.
وكالعادة كيفو رد باستحياء ولكنني كانت عازمًا على إحضار هدية له من مدينة النور أمَّا سمسم فهناك دائمًا ورقة طلبات أحضره له من أوروبا.
ما بين البرفان غالي الثمن مرورًا بكرافت شيك أو كوفيه ألوانها مبهجة أو ما شابه أمَّا أدهم ففاجئني على غير عادته بطلب زجاجة برفان غالية الثمن، ولكن حريمي قالها باستحياء مبررًا أنَّها

هدية لشخصًا ما.
كنت أشعر أن أدهم يخبئ سرًا علينا.

(١٠)

قبل السفر للخارج كان لا بد من المرور عليه لا علامة بأنني مسافر لمدة لا تقل عن أسبوع ولكن لحقيقة الأمر فأنا لمْ أذهب إليه للسبب نفسه، ولكن لأنني كنت محتاجًا لأحد يسمعني وبما أنه أصبح أكثر إنسان قريب لقلبي أو بالأخص قريبًا من لساني فهو بالنسبة لي عبارة عن أُذنًا كبيرة ولكنها مريحة فهو لا يزعجني بأسئلته الغبية كأصدقائي أو بإلحاحه كزوجتي أو يسمعني على سبيل استغلالي كصبياني.
ولكم تمنيت سابقًا أن أتكلم أمام شخص يسمعني ولا يقاطعني ولمْ يخطرْ ببالي فكرة الدكتور النفسي من قبل.
جلست كالعادة على الكرسي المائل للخلف بشدة سارحًا بخيالي مستدعيًّا جميع ذكرياتي عاصرًا أفكاري.
- إزيك يا أستاذ إسماعيل؟
- غريب أمر ذلك الدكتور رغم أنني أتعرى أمامه يوميًّا ولكنني لمْ أملك أن لأكرهه وكيف أكرهه، وهو يعرف عني ما لا يعرفه غيره أجبته.

- الحمد لله يا دكتور على فكرة كنت عاوز أستأذن حضرتك إني مسافر لمدة حوالي عشرة أيام فمش هقدر أجي الفترة الجاية.
- أولًا يا أستاذ إسماعيل إنت مش محتاج تستأذن وقت ما تكون حابب تتكلم شرفني ثانيًا ما تنساناش من الهدية.
- طبعًا يا دكتور.
- هاه تحب تتكلم النهارده ولا نأجل الكلام؟
- لا طبعًا عاوز أكمل.
- طب حضرتك عارف إحنا وقفنا فين المرة اللي فاتت؟
- ولكن كالعادة دائمًا للإنسان وجهان وجه يظهره أمام الناس، والآخر يحتفظ به لنفسه ولا يظهره سوى بالصدفة أو يظهر طواعية أمام من لا نستطيع إخفاء طباعنا أمامهم خصوصًا الطباع الشريرة.
اِكتشفت فجأة أنني متذكر الحديث تمامًا رغم أنني أحاول جاهدًا بعد اِنتهاء الجلسات ألَّا أَستدعيها من ذاكرتي.
اِنتظرت حتَّى ضغط على زر التسجيل وبدأت في اِستكمال ما بدأته.
وجه أبي الآخر عبارة عن مغامرات عاطفية خفية عن جميع الناس عدا أمي فهي أنثى قبل أي شيء آخر.
كانت تحبه ولكن الطبع غلاب فهو كان خائن بالوراثة، فوالده كان متزوج بأربعة سيدات ولكن أبي يحب الجنس الآخر دون

قيود فالزواج غير مدرج بقاموسه فقط متعة.
وكانت حجتها دائمًا أنه مهما غاب فأنه دائمًا يعود.
ولكن في قرارة نفسها كانت تنتظر أن يغيب ذات مرة ولا يعود.
غير أنَّها كانت حقًا تحبه.
كم كانت مسكينة هذه الأم.
ولكن عندما تثور المرأة لا يوقفها أيًّا كان.
وكانت الشعرة التي قصمت علاقة أمي بأبي عندما قرر أبي الانتقال إلى المهندسين وافقت أمي على مضضٍ فهي كانت مرتبطة اِرتباطا وثيقًا بجيراننا وأهلينا وأصدقاء طفولتنا، ولكن مع إصرار أبي لانت أمي.
وفور اِنتقالنا قرر أبي اِستبدال ماضيه والانسلاخ منه، ولكن أمي اِنتقلت بثقافتها وعادتها ونمط حياتنا كأن شيئًا لمْ يتبدلْ.
كانت تعد الطعام بيديها رغم وجود خادمة شابة وجميلة أحضرها أبي رغم معارضة أمي الشديدة مبررة ذلك بأنَّها لمْ تعتَدْ على الراحة وحتَّى لا تختلف طبائعنا.
وليت تغير أبي توقف عند الخادمة والشقة الجديدة والسهرات التي تمتد حتَّى سماع قرآن الفجر يتلى من المسجد الذي يبعد عن بيتنا مسيرة شارعين متوازيين.
ولكن الأدهى من ذلك إصراره على اِشتراكنا في نادي شهير من باب الوجاهة الاجتماعية ليس أكثر.

ولكن حدث ما لمْ أستطعْ نسيانه.
كانت ثالث مرة نذهب للنادي في المرتين الأولتين ذهبت مع أبي وأمي بعد إصرار من والدي وكان مبرر أبي أن نعقد صداقات جديدة، ويكون النادي متنفس لنا بعد تركنا شبرا وذهابنا إلى المهندسين.
وفي المرة الثالثة وبعد إصرار مني أخذتني أمي إلى النادي بعد أن أعطت للخادمة تعليماتها بألَّا تقترب من المطبخ لأنها ستنتهي من إعداد الغذاء فور عودتنا من النادي.
ولمْ تلبث أن تنتهي الساعة الأولى منذ وصلنا أصرت أمي على الرجوع للمنزل.
أدارت مفتاح الباب ودخلنا توجهت إلى غرفتي وتوجهت أمي إلى غرفتها لتبدل ملابسها، وفور وصولها سمعتها تطلق صوتًا بشدة انطلق باتجاها وجدتها تنظر بذهول داخل الغرفة مددت بصري فوجدت أبي يحاول لمام شتات نفسه ويرتدي ملابسه والخادمة أيضًا!!!
وفي زمن قياسي تبدل الحال تمامًا فأبي يتكلم بانكسار ويسترضيها وهي كاملة الكبرياء لا تجيب كلماته سوى بالصمت.
يومها سمعت كلامًا كثيرًا عن الخيانة، وقلة الأصل والحب الذي كان!
لمْ تنمْ أمي ليلتها هذه سوى في بيت شبرا وسط أهلنا وجيراننا

وأصدقائنا، ولكن تبدلت العلاقة بين الأب والأم أحسست بفتورها كثيراً
وقد أثرت هذه العلاقة السلبية على أشد التأثير.
- لو سمحت يا دكتور كوبا من الينسون كنت أطلق عليه ينسون حتَّى أرضي الدكتور فأنا أعلم أنَّه ليس ينسون ولكنه وممرضته يصرون أنَّه ينسون.
سمعت ضحكته لأول مرة.
- تعرف يا أستاذ إسماعيل إن ده ثالث كوبًا من الينسون اليوم؟
تنبهت أنني فعلًا شربت كوبين منه حتَّى الآن.
- معلش يا دكتور أصلي حاسس إني مضطرب جدًا.
طلب لي كوبًا من الينسون على أن أشربه في الاستراحة خارجًا.
اِستأذنت وانصرفت.

(١١)

لكلًا منَّا دنياه التي يحياها يأتي ويذهب، وتستمر مخيلته في اِستدعاء الماضي واستثاره مشاعر ظنه أنَّها ماتت.
كانت ضحكتها طوال الرحلة هي النور الذي يضيء طريقي رغم أنني أعلم أن فرحتها بوجودي شبه مصطنعة ففرحتها كانت أكثر بالرحلة وبحلمها الذي اقتربت من تحقيقه وهو أن تفتتح

مشروعها.
وكنت كمن يشتري الحب بالمال.
ولكن من فرط حبي لها كنت أتناسى كل ذلك.
رغم أن والدها رحمه الله كان ميسور الحال جدًا، ولكنه من شدة وثوقه بأبي شاركه بكل ماله في تجارته، ومات عمي ونجحت تجارتهم ولما لمْ يكنْ لمشيرة من أحد سوانا أنا وأبي وأمي بعد وفاة أمها جعلها واحدًا منا.
وللحق فهي لمْ تطلبْ من أبي حقها في الميراث، رغم عرض أبي لها مرارًا بذلك من باب المجاملة ليس أكثر.
ومات أبي أيضًا وأصبحت شريكتي في كل ما أملك فأنا ليس لي أخوة مثلها أيضًا فنحن عائلة شحيحة الإنجاب.
أفقت من سيرة أبي وعمي على صوت اِرتطام الطائرة بالأرض فانخلع قلبي!
لفحتنا نسمة من الهواء شديد البرودة.
ذهبنا للفندق وضعنا الشنط ونزلنا كنت عازمًا أن أعوضها عن اِبتعادي عن المنزل فترات كبيرة ما بين المحل والورشة وأصدقائي وأخيرًا الدكتور الأذن.
وقد أسميته الدكتور لأنه بالنسبة لي عبارة عن أذن يسمعني، ولا يعلق حتَّى تخيلته أبكم لولا أنني أسمعه على فترات يطلب من سكرتيرته كوب الينسون العبقري.

كان يومًا طويلًا قصيرًا!! طويلًا بالأماكن التي قمنا بزيارتها قصيرًا بالمتعة التي شعرنا بها.
من العبقري الذي قال أن الأيام الجميلة تمر سريعًا؟؟ أظن أنَّه كان يسكن باريس.
ذهبنا إلى شمال باريس وجلسنا على ضفاف نهر السين كان جميلًا يجلس إليه المحبون، ولكنه ينقصه دفئ كورنيش النيل.
وبالقرب من نهر السين كانت حديقة شامب دي مارس المبهرة في جمالها، وكان في أقصى الشمال الغربي للحديقة كانت يطل علينا برج أيفل.
وقفت أمامه ونظرت عاليًا كان عظيمًا ولكنه أقل عظمة من الأهرامات.
وفي نهاية الرحلة ذهبنا للضفة الشمالية لنهر السين حيث يقبع متحف اللوفر أعظم متاحف الدنيا والذي بناه فيليب أوغست عام ١١٩٠ أي قبل حوالي ثمانمائة عام من الآن.
ولكن ما بهرني حقًا باللوفر هي الآثار المصرية المعروضة بالمتحف والتي أشعرتني حقًا بمدى الفخر فكنت أتمنى أن أقول للعالم أجمع أن أجدادي هم أصحاب هذه الحضارة التي تأتون من جميع بلاد العالم للمشاهدة.
ولمْ ننسَ زيارة قصر فرساي، وقوس النصر أيضًا.
كانت مبهورة لأنها المرة الأولى التي تأتي فيها إلى باريس ففي

شهر العسل كانت إقامتنا بلندن ولمْ تسمحْ الفرصة بزيارة باريس ولكنني وعدتها بالزيارة حينما تحين الفرصة، وقد حانت تلك الفرصة.

تابعت هي خطوط الموضة، واستغليت أنا الفرصة في إبرام الصفقة التي أتيت من أجلها.

اِتفقنا على الملابس التي سيتم شحنها لمصر لتكون اللبنة الأولى للمحل الذي ستقوم بافتتاحه قريبًا لتصبح سيدة أعمال ولها كيانها المنفصل عني كما كانت تقول دائمًا فليكن لها ما تريد.

وذهبنا للندن بالقطار السريع.

ووهبتني نفسها كما لمْ تفعل من قبل.

فقد كانت هذه طريقتها للتعبير عن رضاها عني.

(١٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

((يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ* أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا))

صدق الله العظيم

مللت من اِنتظار الإنجاب.

حقًا فإن الله لا يعطي الإنسان كل شيء وإن الرزق موزع بين

البشر بالعدل.
أعطاني الله الرزق في المال والزوجة الصالحة والعمل الناجح، ولكن لم يرزقني الولد.
وأنا راضٍ بقضاء الله وقدره.
ولكن ذلك لا يمنع من اِشتياقى لطفل يحمل اِسمي واسم عائلتي الذي سينقرض حتمًا وستؤول جميع ثروتي وثروة أبي وعمي إلى أناس لم يبذلوا مجهودًا في جمعها أو الحفاظ عليها، ولكنه شرع الله أيضًا ولله في شرعه حكمة لا نعلمها.
كانت فكرة الإنجاب أكثر ما يؤرقني ويفعل بعقل مشيرة الأفاعيل.
وكنت دائمًا أخشى أن تتركني مشيرة، ولذلك كنت أغدق عليها بالهدايا الثمينة، وجميع طلباتها مجابة وآخرها محل ملابس حريمي بأفخر مناطق القاهرة فالمحل كان هدية من باب جلب الرضا وأيضًا من أجل أنها الفترة الماضية كانت مستاءة من تأخيري بالعمل حيث أنني كنت أتوسع بتجارتنا.
كنت أحيانا أشعر باستغلالها لحبي وزيادة سقف متطلباتها ولكنني حين اختلي بنفسي أشفق عليها حقًا.
فهي من تزوجت ابن عمها الذي لا تشعر نحوه بالحب تزوجته فقط من أجل إلَّا تضيع ثروتها، وعندما تزوجته اِكتشفت أنَّه لا ينجب وأنَّه مريض بمرض السكر اللعين.
فانكتب عليها حياة لا تعلم لها نهاية، ولكنه كان يشعر أنَّها

بدأت تحبه، وتنجذب إليه عندما عاشرته فهي عرفت أنَّه يحبها ويتمنى رضاها وأنَّه يحمل بين ثناياه أطيب القلوب، وكل ما سبق ليس له دخل به فهي إرادة الله.

غريب أمر النساء فهي لديها مقدرة على التأقلم على مستجدات الظروف.

غير مشاعر الرجال فلو الأمر معكوس لكان تزوج غيرها، وأنجب منها ولكان لها مطلق الحرية في التسريح بالمعروف أو قضاء حياتها إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولا.

فلتكن مشيئتك يا الله!

سامح عرفة:

أشعر بدبيب النحل في أذني. طابور من النمل يسرح في جمجمتي ينخر عظامها.

أصعب ما في اليوم هو لحظة الاستيقاظ ومحاولة إقناع عقلك بأن عليه النهوض.

وخصوصًا بعد نهار مليء بالنشاط، والعمل ودليل مليء بالمجون والشرب.

فالنهار مخلوق للعمل أمَّا الليل فمخلوق لكل شيء.

ولأنني كائن ليلي فدائمًا ما أجد صعوبة في النهوض صباحًا، ولذلك عندما تستيقظ عيني لا ترى سوى القهوة في محاولة لتهيئة العقل للعمل.

اليوم يبدأ مملًا اِستيقاظ باكرًا، وعمل بلا جدوى ومحاولة بائسة للاستمرار متيقظًا طوال اليوم رغم عدد ساعات النوم القليلة التي أحظى بها.
ينتهي عملي في البنك قبل غروب الشمس ينتهي العمل، ويبدأ اليوم.
غالبًا يبدأ يومي في إحدى البارات، أو النادي وينتهي وأنا ملقى على سريري وبجانبي إحداهما.
ولكنني في الفترة الأخيرة قررت تغيير نمط حياتي وبدأت التخطيط فعلًا.
وكانت أول قراراتي هي محاولة كتابة مذكراتي.
فكتابة المذكرات تكون بداية التعلم من أخطاء الماضي ومحاولة لتعديل المتبقى من العمر.
في بادئ الأمر كان ما يشغلني هل أَكتبها باللغة العامية أم اللغة الفصحى، فقررت أَكتبها كما يجول بخاطري فيكون جزءًا منها عامي والآخر فصحى.
وعندما شرعت في الكتابة أحسست بأنَّها نزوة وستنتهي وقريبًا سألقي بالقلم وأحرق الورق فأنا سريع الشعور بالملل.
ولكن ما بدأت في سرد قصتي وجدتني متعلقًا بها أشد التعلق.
فمنها اِستدعى شعور كنت أحبه بالماضي ألمس أحاسيس عفا عليها الزمن استحضر عبارات كنت عندما أسمعها تذوب مشاعري

ولكنني ما عدت ذلك الصبي الصغير فالأمور دائمًا تتغير وتتطور وتسير نحو طريق اللارجعة.
واليوم هو يوم عظيم فاليوم اِنتهيت من كتابة مذكراتي كاملة.
حقيقة لا أعلم ماذا أفعل بها ولكنني كتبتها وكفى.
واليوم تتملكني الرغبة في قراءتها وتنقيحها لعلي أحاول أن أجعلها كتابًا يباع ويشترى أو حتَّى يكون ميراثا يقرأه من يهمه أمري.

الفصل الأول:

كان أبي هو الابن الأصغر والمدلل لوالده عمدة القرية التابعة لإحدى محافظات صعيد مصر، وكان بخلاف أنه العمدة كان يمتلك أغلب أراضي القرية فهو كان إقطاعيًّا من الطراز النادر، وكان رجل الحكومة الأول في الصعيد، وكان فوق ذلك مرشحًا دائمًا لمنصب وزير الزراعة في عهد أكثر من رئيس وزراء على مر الحكومات المتعاقبة، وكان دائم الرفض للمناصب فهو لا يسعى لسلطة أو جاه أو حتَّى زيادة رصيده من الأموال.
وكان أبي هو طفله المفضل هل كان ذلك لأنه الوحيد من بين أولاده من حظي على النصيب الأكبر من التعليم؟ أم لأنه رأى في عينيه من ذكاء يستطيع من خلاله تحقيق أعلى المناصب أو حتَّى يستطيع الحفاظ على الأموال الذي تعب فيها الأب؟
ومن شدة حبه لولده أصر على اِستكمال تعليمه الجامعي في أوروبا حتَّى يحظى بفرصة أكبر. وقد كان.

سافر أبي طفلًا صغيرًا سافر بعد إن أتم تعليمه الثانوي فخطفته الأضواء في لندن.
عندما وضع أول أقدامه في عاصمة الضباب مسه جني إنجليزي أصبح منساقًا وراء كل ما هو أجنبي عشق إنجلترا كان أكبر من عشقه لبلده الأم.
مر الزمن وحصل على بكالوريوس الهندسة ورفض مرارًا دعوة والده للرجوع وإفادة بلده بعلمه لقد كان الجني الإنجليزى تمكن منه.
كان والدي مغرم أيضًا بكتابة مذكراته، ولكنه كان يحتفظ بها في خزنه متوسطة الحجم في غرفة نومه، وكان أكثر ما يخشاه وقوع مذكراته في يد أحدًا حتَّى لا يعلم ما بها ولكنني حصلت عليها عندما تمكنت من اِستخراج نسخة من مفاتيح الخزنة عندما كنت شابًا صغيرًا، ولكنها ظلت لغزًا دائمًا ما كان يثير فضولي فبرغم وجود المفتاح بيديّ ولكنني لمْ أجرؤ على إدارة بكرة الخزنة ووضع المفتاح بقلبها لأسمع صوت طرقعة بابها.
ولكنني عندما أتتني الجرأة أول ما فعلته أنني فتحت الخزنة، وكان ذلك عندما سافر والداي للعمل بالخارج فقرأتها بتمعن وكأنني أحفظها.
عندما زار لندن كان شابًا صغيرًا، وكان التواجد بلندن مكلفًا له لأن سيادة العمدة كان يرسل له بأموال قليلة خشية إفساده، ولو

أراد العمدة لبعث له بأموال تجعله يعيش حياة الملوك، ولكنها فلسفة الصعيد لا بد له أن يتعلم الاعتماد على نفسه، والدراسة في نفس الوقت وإلّا الرجوع على أول مركب مغادرة لإنجلترا.
فاضطر في بادئ الأمر إلى استئجار غرفة في بيت سيدة كبيرة في السن تسكن مع زوجها وكان عليه أن يدفع أسبوعيًّا قيمة غذائه وإيجار الغرفة.
وكان ما يرسله له حضرة العمدة يكفيه بالكاد ولكي يخرج مع أصدقائه الجدد أو حتّى شراء ملابس إضافية كان عليه العمل في وقت الفراغ تعلم في هذه الأثناء أعمال يدوية كثيرة.
كان أبي رجلًا عصاميًّا محبًا للأدب والشعر، وله في ألبوم صورة الكثير من الصور، وهو يرتاد مسارح لندن.
وكانت له صور أيضًا في حديقة الهايد بارك، وتحت ساعة بج بن العظيمة ولكنني أعشق صورته، وهو أمام قلعة لندن والتي يركع تحتها نهر التايمز تلك القلعة التي بناها الملك ويليام لتصبح رمزًا للقوة. فأصبحت ضعيفة في وجود أبي الذي أصبح رمزًا للقوة هو الآخر ولكن قوته ليست مستمدة من قلعة لندن، ولكن مستمدة من قوة الأهرامات، وكان يملك قلبًا لينًا مستمد من طين أرض الصعيد.
مر أول عام دراسي على والدي وعندما هلت الإجازة الدراسية لمْ يفضلْ والدي الرجوع لمصر، ولكنه فضل الزحف تجاه أوروبا

وخصوصًا فرنسا، وكانت طبقًا لمذكراته من أسعد أيام حياته، ولكنه كان لا يعلم ما ينتظره عندما يعود إلى إنجلترا.

الفصل الثاني:

كان الحاج محمد عرفة بالنسبة لوالدي ليس أبًا فقط، ولكنه كان مثلًا أعلى له، وكان أستاذًا ومعلمًا فقد كان ملهمًا.

رجع من رحلة فرنسا قبل اِنتهاء الإجازة السنويَّة ليجد السيدة مارجريت بانتظاره، وعلى وجها اِبتسامة جميلة فقد كانت سيدة بشوشة حقًا.

أخذها بحضنه، وجلس يحكي لها عن مدى اِستمتاعه برحلة فرنسا وعن روعة باريس.

اِستأذنها لتبديل ملابسه والعودة لشرب الشاي الساخن معها ومع السيد مايك زوجها على أن يكون ذلك بحديقة الشقة التي يقطناها وسمعها، وهو ينصرف تخبره بوصول خطاب له من مصر توقف برهه على السلم المؤدي لحجرته العلويَّة، ولكن ما لبث أن تذكر أنه لا بد أن يكون هذا هو المظروف الشهري الذي يحتوي على الشهرية التي يدفع منها قيمة الإيجار، والغذاء فأكمل صعوده لتبديل ملابسه على أن يعاود لاستلام المظروف بعد برهة من الوقت فهو ليس في عجلة من أمره.

شرب فنجان الشاي وهو يحكي للزوجين عن رحلته في قلب باريس وبعد انتهاؤه من السرد تذكر المظروف فالتقطه وفتحه وفعلًا

وجد الشهريَّة الداخل، وكانت الأموال ممدة بداخل المظروف، ويرقد بجانبها خطاب وقد كان من عادة حضرة العمدة إرسال الأموال في مظروف منفصل عن المظروف الذي يحتوي خطابات للسؤال عنه وعن تعليمه ونقل سلام أهله وأهل البلد عنه متنميًّا له العودة سالمًا غانمًا من بلاد الفرنجة.

دس المال بجيبه واستخرج الخطاب لقرائته، وكانت فحوى الخطاب.

أخي العزيز الباشمهندس: عبد السلام عرفة.

يؤسفنا أن ننقل لك فاجعتنا فقد توفي كبير عائلة عرفة والدنا الحاج: محمد عرفة.

عندما يصلك خطابنا يكون قد مر على وفاته ما يقارب الأسبوع.

وقد مات الأب وهو راضي عنك كل الرضى متنميًا لك النجاح، ووصانا بك خيرًا وسيصلك شهريتك كالمعتاد.

لا تقطع زيارتك وتأتي فقد تمَّ إكرام والدنا ودفناه والحمد لله.

أَدام الله عمرك، وجعلك ظهيرًا لنا كما يتمنى والدنا.

أخيك الأكبر: أحمد عرفة.

قرأ الخطاب أكثر من مرة، وكانت دموعه تنهمر على وجهه دون أن يسمع له صوتًا.

مات السند وانكسر الظهر. مات قبل أن يراه ويقبل يده وقدمه. أحس بأن حملًا تمَّ وضعه على ظهره رغم تعهد أخيه الأكبر،

ولكن الحمل ليس له علاقة بالمال فأخوه هو أباه الثاني ولكن الأب لا يعوض وخصوصًا الحاج محمد عرفة ذلك الجبل المحمل بالخبرات الحياتية، والذي كان لا يبخل بنقلها له.

أراد أن يختلى بنفسه ويبكي ولكن مارجريت لمْ تعطه الفرصة للهروب فقد اِحتضنته بشدة وبكى في حضنها كما لمْ يبكِ من قبل. فقد كانت مارجريت بالنسبة له بديلًا جميلًا لأمه فهي تملك ما تملكه أمه من حنان وذكاء فطري اِهتمام به لدرجة المبالغة، ولكنها تمتلك مواصفات تفتقدها أمه فهي مثقفة ومحبة للقراءة كانت اِمرأة أرستقراطية بحق.

مرت الأيام التالية على والدي حزينة وكئيبة.

فكر جديًّا في ترك لندن، والرجوع للصعيد ولكن كيف سيكمل حياته؟ هل سيعيش في كنف أخيه الأكبر ويكون أقصى طموحه أن يكون العمدة القادم والذي يرتدي الجلباب الواسع والعمة المشدودة على الرأس بعناية.

أم يستمر بالغربة في محاولة منه لتحقيق حلم والده بأن يصبح الباشمندس.

لولا وجود مارجريت بحياة والدي لكان مات كمدًا وقهرًا وحزنًا على الأب الراحل.

كانت تعد له الإفطار والشاي ولا تتركه سوى للنوم خوفًا عليه من الجلوس وحيدًا وكانت تقرأ له روايات لشكسبير بلهجتها

الإنجليزية الجميلة.
كانت ونعم الأم والصديقة لوالدي كانت تبحث عن الأشياء التي تساعد والدي للخروج من محنته.
حتَّى أنها أخبرته أنها تعد له مفاجأة.
عندما يتملك الحزن من قلبك تصبح جميع الوجوه مظلمة، ويترك الحزن في القلب غصة، ويكون اللون الأسود هو الغالب على جميع الألوان.
وذلك ما كان يشعر به والدي.
مر أسبوع منذ سماعه لخبر وفاة والده، وقد بدأ يتمالك نفسه ويجمع شتات عقله.
ولكن شعورًا لم يفارقه أصبح يشعر دائمًا بأنه تائها في الأرض الواسعة كطائر صغير تتخطفه النسور.
مرت الأيَّام التالية عليه بين اِستحضار دروسه، وذهاب للكلية أو الذهاب للمسجد القريب للصلاة ولسماع الدروس الدينية، وبين الجلوس مع السيدة مارجريت لقراءة الروايات ومناقشتها أو الذهاب برفقتها إلى السينما فهو في الأونة الأخيرة اِرتبط بها ارتباطًا وثيقًا فأصبحت هي الملاذ الأمن والعوض عن الأهل الذي فقدهم للأبد إمَّا بالموت أو بقرار عدم العودة مرة أخرى.
وما الداعي للعودة لمصر وقد مات الرباط الذي يربطه بها.
ولأن حياتنا لمْ يتم رسمها بخط مستقيم بل بعدة خطوط متعرجة

فكان دائمًا عندما تحلو له الحياة ينتظر منها القسوة، وعندما تقسو ينتظر الرحمة الهابطة عليه من السماء.
عندما كان يخلو بنفسه يحدثها بصوت خفيض متسائلًا ماذا بعد؟ هل يستمر بالعيش غريبًا في بلاد غريبة أم يعود للأهل ليكون مجرد مهندس ببلد لا تعترف بالأحلام؟
كان عندما يجالس السيدة مارجريت ويحدثها عن خواطره كانت تناقشنه بطريقتها السلسة المعهودة كان حديثها عذبًا، وكانت تعرف ما يجول بخاطره قبل أن تنطقه شفتاه، ولكن كانت هناك منطقة مظلمة بحياتها وكانت تصر على عدم التحدث عنها وكان عندما يحاول اِقتحامها كان يجد منها الصد فأنتوى عدم إقحام نفسه بحياتها اِنتظارًا بما تجود به عن حياتها السابقة حتَّى كان اليوم الذي أرادت فيه فتح صندوق ذكرياتها.

الفصل الثالث

كان الجو معتدل و مشمسًا وهي أجواء لا تتكرر كثيرًا في بلاد الضباب.

وكان هو والسيدة مارجريت والسيد مايك يقومون بالإفطار في حديقة المنزل حين فاجأته برغبتها لدعوة نفسها على حفل في دار الأوبرا الملكية في قلب لندن على أن يقوم هو بالحساب فتبادلا الضحك، وانصرف إلى الكلية على وعد بالخروج الليلة.

ولكن ما كان يشغله أن تذاكر دار الأوبرا مكلفة لما هو بظروفه ولكنه هي التي دعت نفسها إذن لا رجعة.

وطالما أنَّه لا رجعة إذن فلنستمتع.

كان يحاول الادخار من الشهرية المرسلة إليه من مصر على أمل تكرار تجربة الإجازة الماضية ولكن لا بأس.

في الموعد المحدد كان يرتدي بدلته السوداء وهي ترتدي فستانها الوردي وتتأبط ذراعه مشيًا في شوارع لندن وجلسًا على كافيه بشارع إكسفورد بعد حضور عرض الأوبرا سهرا حتَّى الساعات

الأولى من اليوم التالي وقد كان يومًا من أسعد أيَّام حياته كان يشعر معها أنَّه ممسك بيد أمه.
أخبرته بأنها وعدته بمفاجأة وقد أن ميعادها والمفاجأة هي موعد زيارة حفيدتها التي تسكن بالشمال الغربي بليفربول.
ستأتي ليزا غدًا مساءً وتريده أن يتعرف بها؛ لأنها تشبهه كثيرًا هذا ما قالته مارجريت لأبي.
نام ليلته يحلم بلقاء ليزا وقد رسم لها صورة بخياله.
شابة صغيرة جميلة تشبه مارجريت في صغرها مثقفة ومرحة كجدتها.
في الموعد المحدد سمع أصوات متداخلة بالأسفل فعلم بقدومها اِرتدى ملابسه، وانتظر حتَّى تقوم مارجريت بدعوته للحضور وعندما نادیت مارجريت عليه نزل الدرج، وهو يبحث في وجوههم عن ليزا.
كانت السفرة معدة بالطعام يجلس على رأسها كالمعتاد مايك، وعلى يمينه تجلس مارجريت وأمامها الكرسي المخصص له مسبقًا ولكن في هذه الليلة نزل القمر من سماءه، وتربع على الكرسي المقابل له ليوزع ضياءه على الموجودين.
جلس على يمين مارجريت ليكون في مقابل ليزا حاول أن يجذب اِنتباهها لأن الانطباع الأول يدوم، ولكنه فشل حتَّى أن يتكلم في وجودها فالصمت في حرم الجمال جمال.

كانت مارجريت هي من يدير الحديث، وكان مايك كعادته صامتًا لا تشعر بوجوده.
مرت الأيام التالية على أبي مشرقة كأشعة شمس في شتاء لطيف.
أبي كان مدونًا بمذكراته أن ما يميز أوروبا عمومًا وإنجلترا خصوصًا سهولة ويسر العلاقات أي لا يوجد تعقيدات هذا بخلاف الثقافة المنتشرة بين الناس حيث المسارح المنتشرة والمقاهي الثقافية.
هل أصبح أبي فعلًا مهووسًا بالغرب حقًا؟
سنرى.
أصبح أبي أكثر ارتباطًا بمارجريت وليزا لا يخرج سوى بصحبتهم ولا يأكل سوى برفقتهم يسهر معهم ويمر الليل في نقاش وحديث لا ينتهي.
ولكن دائمًا ما كان هناك ألغاز ومناطق محرمة لا يسمح أحدًا بتجاوزها.
منطقة مارجريت المحرمة تتلخص بالماضي.
وألغاز أبي عن بلده وأهله فكان دائمًا ما كان يهرب من الإجابة عن تساؤلاتهم حول هذه المنطقة.
أمَّا ليزا فكانت كتابًا مفتوحًا كانت تتكلم بدون قيود.
لمْ يمرْ سوى بضعة أيَّام إلَّا وأبي بدأ يشعر بشيء ما يتحرك بقلبه فقد أصبح يحب الجلوس بقربها، والتحدث معها وجد بها ما كان يتمناه.

ووجد معها ومارجريت جوًا من الألفة كان مفتقده ببلده ووسط أهله فعندما تختلف الثقافة التي هي المدخلات يختلف التعبير عن المشاعر والتي هي المخرجات.

كانت تتمنى ليزا قضاء الإجازة بمصر، ولكنه كان يحاول الهروب من تحقيق أمنيتها لصعوبتها فكيف له اِصطحابها إلى صعيد مصر، وكيف يقدمها لأهله فهو يرى أنَّه الوحيد المنفتح على الغرب وأهله الذين تربوا طوال عمرهم بالصعيد لن يتقبلوا بأي حال هذا الوضع الغريب عليهم.

وفعلًا أقنع ليزا بقضاء الإجازة بمكان آخر، وكانت حجته أن تلك الأيَّام سيكون الجو حارًا جدًا وهي لن تستطيع تحمل أشعة الشمس المصرية.

وكان يتمنى قضاء الإجازة ببلجيكا لأنها من أقرب الدول لإنجلترا مِمَّا سيقلل التكلفة ولكنها كانت تميل أكثر لاستضافته بليفربول.

سافرت مع وعد منه بالتفكير في قضاء الإجازة بليفربول.

كان يفكر بها كل دقيقة بل كانت لا تغيب عن تفكيره كان يتصيد سيرتها في حديثه مع مارجريت.

هل أصابته سهام حبها أم أنَّها الوحيدة التي شغلته فقبلها كان عقله لا يعرف سوى الدراسة، والعمل بجد وفي أوقات الفراغ يكون للسفر الأولوية الأولى.

ولكن عائلة مارجريت بها شيء غامض شيء أشبه بالمغناطيس

كلما هم بالابتعاد يجذبه.
سأل نفسه كثيرًا ما نهاية حبه بليزا؟
هل سيتزوجها؟
إنَّه حقًا شيء أبعد ما يكون عن الواقع.
كيف وهو ابن الصعيد المملوء بالعادات، والتقاليد التي تربطه بالأرض قبل أن تربطه بالأشخاص.
وهي بنت إنجلترا إنجلترا المليئة بالاستقلال وحب الحياة.
لو تمكن الحب من قلبه سيشعل لندن ويجعلها جحيمًا.
هل سيتقبلها بانفتاحها أم ستقبل هي بانغلاقه؟
ولما لا؟
كان بداخل والدي صراع شيئان متضادان يسكنان قلبه.
أصوله و حياته الجديدة.
ولكنه أراد أن يكمل التجربة لنهايتها متيقنًا أن الله لن يتركه.
أصبحت ليزا ملهمته ودافعه القوي نحو التقدم في الدراسة.

الفصل الرابع

القائل أن وقوع البلاء خيرًا من انتظاره حتمًا كان يقصد أبي.
مر الفصل الدراسي وأتت الإجازة الصيفية وحان وقت السفر إلى ليفربول لملاقاة الإعزاء.

كان أطول فصل دراسي مر بأبي طبقًا لمذكراته.
عندما وصل الباص ليفربول وجدها بانتظاره وكأن الشمس أشرقت مرة أخرى شمسان ليوم واحد.
وصلنا الفندق الرخيص بالمدينة وأصرت هي أن يضع شنطته بالغرفة ليبدأ يومهم الأول في الساعات الأولى من وصوله لا تريد إضاعة آية لحظة.
كم أنا سعيد لارتباطي بفتاة مثل ليزا هكذا قال والدي.
أمضيا اليوم الأول في مرح وسعادة وفي نهايته قامت بدعوته على الغذاء في بيتهم غدًا.
لمْ ينمْ ليلته كان ما يشغل تفكيره كيف ستقدمه لأهلها؟
إنه لم يفاتحها في الارتباط أيًّا كان نوعه، ولكنها حتمًا تشعر بما يدور داخله.
في الموعد المحدد سلفًا كان يضع يده على جرس الباب معلنًا قدومه.
فتحت له الباب فشعر بالارتياح.
كان يخشى تقديم نفسه وهي الآن سترفع عنه الحرج.
ولكنه مع الوهلة الأولى لمْ يكنْ يشعر بالارتياح.
قدمته لأهلها على أنَّه صديق من لندن.
لمْ تعجبه طريقة تقديمها له في اللقاء الأول ولكن لابأس.
كانت عائلتها مكونه من أباها وأمها وأخ يبدو أنَّه أصغر منها

عمرًا ولكنه أكثر فظاظة من والدها والذي تبدو عليه علامات الاشمئزاز طوال الوقت.

شعر والدي أنَّه شخصًا غير مرغوب فيه.

إذًا لماذا دعته على الغذاء؟

هل هو ردًا للجميل حيث أنَّه لمْ يتركها بلندن.

بدأ الغداء وحاول أبي أن يبدو لطيفًا، ولكنهم كانوا يقابلون محاولاته بكثيراً من الصلف وجمود المشاعر.

وكانت قمة الاستهتار بوجوده عندما قدموا له لحوم في صحنه مع تنويه متعمد من الأم أن اللحوم التي أمامه هي لحوم خنزير بري.

هل كانت أمها لا تعلم أنَّه مسلم ومحرم عليه تناول لحوم الخنازير؟ أم أنه استفزاز متعمد؟

وشعر بأنه شيء متعمد عندما وجد نظراتهم كلها موجهه صوبه في اِنتظار ردة فعله ولكنه ما زال متمسك بليزا ولا يريد اِصطناع أي مشاكل مع أهلها خصوصًا في اللقاء الأول.

فاعتذر وانصرف.

الفصل الخامس

حبس نفسه بغرفته وبكى!

قابلته ليزا باليوم الثالث.

ظلت تعتذر مِمَّا حدث بالأمس مبررة ما حدث بأنه ليس المقصود منه، ولكن المقصود هي مارجريت.

لمْ يفهمْ والدي سبب لكرههم الغير مبرر من وجهه نظره لمارجريت فهو يراها إنسانة رائعة.

ولكن التجربة علمته ألَّا يحكم على الناس لمجرد آراء ووجهات نظر.

ظلت تستعطف رضاه وترجوه نسيان ما حدث البارحة.

وفي سبيل ذلك دعته مرة أخرى لسهرة الليلة، ولكن مع أصدقائها وأخبرته أنَّها ستنتهز الفرصة لتعريفه بمايكل، وطبعت قبله على خده واِنطلقت دون انتظار رده.

ظل متسمرًا بمكانه واضعًا راحة يده على خده ملامسًا موضع شفاهها غير مصدقًا ما حدث للتو.

شعور متناقض بين فرحه يحاول إخفائها وبين توجس من علاقة لا يعلم لها نهاية.

ثمَّ من مايكل هذا؟

الفصل السادس

في الموعد المحدد كان جاهزًا للقائها ومقابلة هذا ال مايكل.

إنه يشبهها. نفس الملامح نفس الملابس نفس طريقة الكلام حتَّى ملمس اليدين حين تلاقت يدينا بالسلام.

قدمته إليه: عبد السلام عرفة صديق من مصر ويدرس بلندن.

وقدمته إلى مايكل مصحوبة بابتسامة يتبعها قبلة على شفتيه.

أرادت إرسال رسالة سريعة إليه بأنها مرتبطة بهذا الكائن الذي يشبهها.

مرت الأيَّام التالية على والدي طويلة وحزينة وكئيبة.

ثاني صدمة يمر بها أبي في لندن بدأت الصدمات بوفاة جدي أتبعها فراق ليزا للأبد فهل سيخبئ له القدر المزيد من الصدمات؟

انكفئ أبي على دراسته أكثر فأكثر.

فهو لمْ يكنْ له المزيد من الخيارات فأمَّا أن ينحرف باتجاه الملذات، وما أكثرها في بلاد الضباب وأمَّا أن يجعل دراسته هي المخرج من صدماته المتتالية.

ولأنه من تراب صعيد مصر مروي من نيله فلمْ يكنْ له سوى الحل الثاني فجعل من دراسته همه الأكبر وشاغله الأعظم ساعدته في ذلك مارجريت.

فكانت ترفض أن يساعدها في الأعمال المنزلية مقابل أن يخرج معها في أيام الإجازات.

نشأ بينه وبين مارجرت علاقة غريبة فهي تشبه الأم في حنانها وارتباطها به وتفضيله على جميع الناس.

وأيضًا تشبه الحبيبة في خفة الروح والارتباط المفعم بالحيوية، وتشبه الأخت في الاحتفاظ بالأسرار والتقرب منه بدون البحث عن المنفعة.

الفصل السابع

مرت الأيَّام التالية متشابهة على أبي ما بين الرسائل المتبادلة مع مصر الممثلة في أحمد عرفة عمدة القرية وأبيه الثاني وأخيه الأكبر.
رسائل محملة بالمشاعر والسلامات والشهرية والتي زادت بعد وفاة والدي بما يعادل الضعف، وذلك لا تفرغ للدراسة طبقًا لتأكيد العمدة.
وبين الجرعة المكثفة من الاستذكار حتَّى ينتهي من السنة النهائية، ويتخرج ويختار بين الاستمرار بلندن أو اختيار بلدة أخرى ولكن فكرة الرجوع لمصر هي فكرة مستبعدة.
وبين الجلوس من مارجريت في أوقات الفراغ أو الخروج الذي تضاعف في أيَّام الإجازات حتَّى أنَّه في العطلة الأخيرة قبل التخرج عقد العزم على عدم السفر والترحال في الإجازة وهي واقعة تحدث للمرة الأولى منذ مجيئه إلى عاصمة الضباب ولكنها للحقيقة لمْ تشعره بالملل أو الندم في قرار عدم السفر.
فكانت تخرج برفقته يوميًا تتأبط ذراعه، وكأنهما متحابين أو

مغرمان ببعضها البعض.
وعندما ينويان عدم الخروج تكون أمسية جميلة بالبيت أمسية ثقافية تبدأ بعد اِنتهائه من استذكار فروضه اليومية.
يهبط الدرج ليجدها أمام المدفأة، ويرقد بين يديها كتابًا تقرأه بعناية وعندما تسمع وقع خطواته تزيد اِبتسامتها وتنحي الكتاب جانبًا يجلس على الكرسي المقابل لها والمخصص لزوجها السيد ديفيد والذي يقضى أكثر أوقاته بألحانة ولا يأتي إلّا مع سطوع شمس يومًا جديد.
ولكن في ذلك اليوم وجدها ولأول مرة تشرب.
منظر الكأس بين يديها هو منظر جديد عليه، ولكنها طبقًا لقواعد البلدة التي تعيش فيها هو منظر مألوف، ولكن غير المألوف عليه هي مسحة الخزن التي تعلو ملامحها والتي لمْ يعتَدْ عليها في عيون مارجريت.
حاول أن يخرجها من حالة الحزن التي تعتليها لكنها هي التي سحبته إليها.
سألها عن سبب حزنها وكأنها كانت تنتظر سؤاله فقررت فتح خزائن حياتها وأسرارها.
حكت له عن والدة ليزا التي وجدت والدتها تخون زوجها ولكنها لم تسأل نفسها لماذا تخونه؟
فهى لمْ تعتدْ أو تحب الخيانة ولكن عجز ديفيد هو ما دفعها

للانقياد وراء مشاعرها ورغباتها الأنثوية فقد ظلت تفتقده على فراشها مدة طويلة جدًا مرت عليها أيَّام كثيرة تتمناه فلا تجده أو تجد جسد بلا قوة رجل بلا مقدرة.
دائمًا ما يكون من هم في حالة ديفيد لديهم الرغبة ولكن ينقصهم المقدرة.
ولكن ديفيد كان يفتقد الرغبة والمقدروة وعندما قررت مواجهته كشف لها عن عجزه.
حاولت أن تتأقلم مع الوضع الجديد وكأن زوجها مات أو تركها مع اِبنتها الوحيدة وهجرهم.
وعندما قامت بتأجير الغرف العلوية لمهاجر شعر مع الوقت ومن نظرتها إليه أنها مفتقدة وجود رجل بحياتها.
أغواها واجتذبها إلى سريره.
تكرر اللقاء أكثر من مرة وكان ديفيد يشعر بهذه العلاقة ولكنه كان يغض الطرف حتَّى لا يتأذى بردة فعلها وخوفًا من اِفتضاح أمره.
حتَّى أتى اليوم الذي رأتهما والدة ليزا وهما بفراش المتعة.
وهذا ما يفسر سر كراهية والدة ليزا وأباها لمارجريت.
تذكر ليزا واشتياقه لها فبكى.
وكانت وهي تحكي قصتها تبكي بشدة جذبها لحضنه فأخذت تبكي بحضنه وهو يبكي واختلطت دموعهما.

لمْ يشعرْ بنفسه إلَّا وشفاههما ملتصقين ببعضهما.
فتحت خزائنها ومكامنها أيضًا.
حدث بينهما ما كانا يحاولان عدم حدوثه.
عاشرها معاشرة الأزواج.
شعر وكأنه كان بكرًا، وهي من اِغتالت براءته.
كرهها وكره نفسه وكره ديفيد وكره لندن وتمنى رجوعه لبلده.
من كان يصدق أنه سيقع بالفاحشة وهو الذي لمْ يترك فرضًا إلَّا وإقامة حتَّى في بلاد الخواجات كان مواظبًا على الصلاة حتَّى جاءته هذه المرأة وغوته لتطرده من جنة رضا ربه إلى خوفه من عقاب رب السموات والأرض.
مرت الأيَّام التالية وهو يحاول تفادي النظر بعينها حتَّى وجدها تطرق بابه مستأذنه خروجه إليها.
نزل الدرج وجدها كما اعتادها تجلس أمام المدفأة وبجانبها الكرسي الخاص بزوجها رمى نفسه عليه غارقًا فيه شعر ولأول مرة بأن الكرسي أكبر منه بكثير أو أنه تضاءل بفعل فعلته.
تحدثا كثيرًا حتَّى فاجأته بالأسف عمَّا حدث وأنَّها ستظل تشعر بأنَّه ولدها التي لم تنجبه.
بادلها أسف بأسف وطبع قبله على جبينها وانصرف.
ولكنه شعر بأن شيئًا كسر ولن يتم إصلاحه.

الفصل الثامن

انتهت الدراسة وعاد إلى وطنه.

ودع مارجريت بالدموع وودع ديفيد ولم ينسَ الاتصال بليزا لتوديعها وكأنَّه كان يعلم بأنَّه لن يراهما مرة أخرى!

ترك لندن التي عشقها بجنون.

هبط إلى أرض الوطن وكان حقًا هبوطًا قويًا.

قضى بقريته أيامه الأولى بعد الرجوع ولكنه لمْ يجدْ نفسه.

ترك قريته ونزح إلى القاهرة وجد عملًا بشركة مقاولات وتعرف على والدتي والتي كانت تعمل معه بنفس الشركة، ولكن بقسم الحسابات.

تعرف إليها سريعًا وتمت الخطبة وتزوجا وكانت ثمرة هذه الزيجة وجودى بالحياة.

ولكنه كان طموح لأبعد حدود فضاقت به بلده مرة أخرى وقرر أن يسافر مرة أخرى ولكن ليس للتعلم والدراسة، ولكن للعمل وجمع المال.

تركها وتركني فمن تربى على السفر والغربة يعتادهم.

أمضيت سنواتي الأولى بدونه، وعندما التحقت بالمدرسة الثانوية كنا نعيش حياة مترفة جدًا وكانت كل طلباتي مجابة ولكن كان ينقصني وجود الأمان.

ولكن المفاجأة لي حينما قررت أمي السفر للحاق بأبي وتركي وحدي.
كثيرًا ما يقوم الآباء بالتضحية من أجل أولادهم، ولكن أن يقوم الأبناء بالتضحية هذا هو الشيء العجيب.
سافرت وتركتني لأعيش الوحدة مرة أخرى.
أصبحت طلباتي مجابة أكثر من ذي قبل ولكن كان ينقصني وجود الحنان.
تركتني أمي بعد أن أوصت خادمتها بزيارة الشقة مرة أسبوعيًّا لتطمئنها على أحوالي أو بالأصح مراقبتي وإبلاغها.
كنت أقضي النهار بالمذاكرة والدراسة وعندما يأتي المساء أحبس نفسي بالغرفة وأبكي بحرقة.
استمررت على ذلك حتَّى جاء اليوم الذي غير حياتي رأسًا على عقب.
صحوت من نومي وخرجت من غرفتي وجدتها أمامي كانت منكفأة على الأرض وترتدي ملابس قصيرة تشف ما تحتها تكشف أكثر ما تستر.
تسمرت أمامها لحظات حتَّى اِلتفتت ناحيتي وجدتني ووجدت نظراتي تخترق ملابسها، وتكشف ما تحته.
اِرتبكت من نظرتها سألتني عن أحوالي فأخبرتها أنني بخير جلست أمامي حتَّى دنت مني كانت تخترق حواسي بأنفاسها زاد اِرتباكي

أخبرتها بأنني سأكمل نومي منبهًا عليها عند نزولها إغلاق الباب بإحكام ودخلت لأنام.
لمْ أستطِعْ النوم فقد كانت صورتها وهي تمسح الأرض لمْ تفارق مخيلتي، وقد غلبني النعاس للحظات ولكنني اِنتبهت إلى وجود شيئًا بجانبي اِلتفت مذعورًا لأجدها ممددة بجانبي شبه عارية تحتضنني من الخلف اِلتفتت إليها حتَّى أصبح وجهينا متلاصقين ذابت أجسادنا بدون أن ننطق بكلمة دككت حصنها مزقتها عاشرتها كاننا أزواج.
تكررت لقائتنا كثيرًا كنت أَنتظر زيارتها بفارغ الصبر وقد علمتني فنون الزواج عرفت على يديها الاشتياق والرغبة وتعلمت مكامن النساء وضعفهم.
كانت تأتي صباحًا وتذهب مساءً بعد أن أكون عاشرتها أكثر من مرة.
كنت لا أشبع منها وهي لا ترتوي سوى معي كنت لمْ أكمل عامي الثامن عشر وهي قد تخطت نصف العقد الرابع، ولكنيى كنت أشعر أنا في أحضانها أنَّها لمْ تتعدِ العشرين من عمرها.
مر وقت طويل وأنا اِكتفى بها حتَّى مللتها.
وحينما أحست مني بذلك حاولت أن تستملني إليها ولكنني أعطيتها مالًا كثيرًا حتَّى ننهى هذه العلاقة الشاذة بين شاب صغير وامرأة متزوجة وتكبره بأكثر من ثلاثة عقود.

ولكن من أدمن شيئًا صعب عليه تركه.

الفصل التاسع

أصبحت أبحث عن المتعة عند أي امرأة أقابلها.
أصبحت المرأة بالنسبة لي مرادفًا هامًا للمتعة واللذة الجسدية فقط.
ولكن بجانب ذلك نجحت بالدراسة حتَّى التحقت بكلية التجارة الخارجية.
كثرت صداقاتي وكنت لا أجد المتعة سوى في اِصطياد النساء لكن في الحقيقة كنت أنا الفريسة، وليس الصياد فالمرأة هي من يقوم بدور الصياد.
كنت أصحو من نومي لأجد إحداهن تنام بجانبي، وكنت أنسى من هي حتَّى أبدأ أستعيد وعيي وأتذكر من تكون.
حتَّى حينما رجع والداي من رحلة جمع المال لمْ أستطعْ العيش معهما وفضلت أن أترك لهم شقتهم وأخذت شقة بعيدة عنهم فقد اِعتدت العيش بمفردي أو العيش مع من أريد لأنني لست مجبرًا على العيش مع أحدًا لمجرد أن هذا هو المفروض.
لمْ يطرقْ الحب بابي قط.
كان ذلك بسبب نظرتي المحدودة تجاه جميع أنواع النساء.

حتَّى حينما بدأت اِرتياد الجامعة لمْ يختلف نمط حياتي أبدًا الدراسة نهارًا والسهر ليلًا.

ولكن كان أصدقاء طفولتي هم الجانب المشرق في حياتي هم الحب الوحيد بدون مصلحة.

إن حقًا الصداقة هي مقياس نجاح حياة الأشخاص.

وخصوصًا أصدقاء الطفولة يكون لهم اليد العليًّا بحياتنا.

تخرجت من الجامعة والتحقت بالعمل بإحدى البنوك الأجنبية بمصر وساعدني والدي كثيرًا بعلاقاته للحصول على هذه الوظيفة والتي يتمنى الحصول عليها كثيرًا من الخريجين الجدد وذلك رغم علاقتي الفاترة به.

ونظرًا لتميزي وبنائي لشبكة علاقات ممتدة وخصوصًا مديرة البنك والتي لمْ تنجُ من محاولاتي المتكررة للحصول عليها لنيل رضاها وبفضلها تمت ترقيتي لأصبح أصغر مدير لقسم خدمة كبار العملاء بالبنك.

وبفضل وظيفتي الجديدة تشعبت علاقاتي وأصبحت من الأعمدة الأساسية بالبنك.

كنت أعيش حياة المجون.

لمْ أستطعْ الاستمرار بعلاقة أكثر من عدة مرات سوى في موضع واحد فقط.

سارة:

كانت سارة فتاة لطيفة تعرفت عليها عندما ذهبت لشراء هدية لسيدة كنت على علاقة بها، وكانت سارة تعمل بمحل لبيع العطور بمحل شهير بإحدى المولات الكبيرة.
لمْ تستطِعْ الصمود أمامي كثيرًا أو كذلك خُيِّلَ إليّ.
تعرفت عليها سريعًا فعلمت منها أنها من مدينة ساحلية، ولها الكثير من الأخوة والأخوات وأنَّها نزحت للقاهرة لمحاولة كسب لقمة عيش، وأنها تعيش بمفردها مِمَّا جعلها عرضة للمضايقات.
كانت ظروفها تشبهه ظروفي فدعوتها للغذاء بمنزلي.
عندما عاشرتها علمت أنَّها ليست بنتا كما توقعت، ولكنها أيضًا لمْ تكنْ متمرسة مِمَّا يعني أنَّها المرة الثانية أو الثالثة لها.
اِنتقلت للعيش معي مع يقارب الثلاث سنوات لمْ أتذكرْ اِختلافنا ولو لمرة واحدة كنا متفاهمين لأبعد حدود كانت تبحث عن راحتي.
نفترق نهارًا للعمل ونتقابل بعد العمل للغذاء في إحدى المطاعم أو نتقابل بالبيت نصنع الغذاء سويًّا ثمَّ نسهر سويًّا وننام سويًّا أيضًا.
كانت أطول فترة أكتفي فيها بامرأة واحدة.
وقفت سارة كثيرًا بجانبي حينما كنت أحتاجها أجدها فكانت حقًّا اِمرأة تملك من الجدعنة الكثير.
لن أنسى لها عندما مرضت أخذت إجازة من عملها وجلست

بجانبي.
في الحقيقة لمْ أستشعر الدفء سوى في أحضانها.
حتَّى جاء اليوم الذي كان لا بد من اِتخاذ إحدى قرارين أحلاهما مر.
كنا جلوسًا على الأريكة نشاهد التلفزيون، وكنت كنت مائلًا برأسي واضعًا إياه على صدرها كعادتي حتَّى فاجأتني قائلة أن الشركة التي تعمل بها ستفتح فرعًا لها بإحدى الدول العربية وهي فرصة لن تعوض.
حينها لمْ أعرفْ ما أقول فقد اِعتدت على وجودها بجانبي وأعلم تمام العلم أنَّها تريد وجودها بجانبي ولكن لكل شيء ثمن، وأنا لن أستطع دفع ثمن وجودها بجانبي.
كنت أحب حياتي هكذا فلمْ أشتاق يومًا لحياة هادئة بها اِمرأة واحدة ومليئة بالأطفال.
فقررنا الانفصال وكان شيئًا مؤلما لي ولها أيضًا.
وعلمت أنني كنت أحبها، ولكن بعد فوات الأوان.
لقد بدأت أن انتهي من كتابة مذكراتي ولكنني أشعر أنَّه ليس بها شيئًا مميزًا لتصبح كتابًا.
وأحيانًا أشرع في تمزيقها.
ولأنها قصة حياتي فهي لا تهم أحدًا غيري.
ثمَّ أن أسلوبها لا يرتقي لأن تصبح رواية.

فهل أضيف عليها بعض القصص الوهمية لاجتذاب القراء.
وهل سأنتظر أن يكملها غيري بعد وفاتي ليكتب الجزء الأخير منها؟

سامح عبد الفضيل

صحوت من نومي من شدة الحر تحسست ملابسي فوجدتها مبتلة عن آخرها.
تحسست وجهي فوجدتني متعرقًا. كادت يدي أن تلتصق بوجهي من شدة لزوجة العرق الناتجة عن اِرتفاع درجة الرطوبة.
نفخت الهواء متأفأفأ فشعرت أن الهواء جامدًا لا توجد نسمة هواء حتَّى.
رغم أن المؤشر الخاص بالمروحة والتي كانت تعلو رأسي مباشرًا يشير إلى الدرجة القصوى.
تشعرني أنَّها ستسقط على رأسي ولكنها لا تأتي بخير.
أخذت دش باردًا ولكن حتَّى المياه لا تأبى منحي بعض الانتعاش فالماء يأتي ساخنًا.
أنهيت حمامي سريعًا وعند خروجي وجدتني قد تعرقت مجددًا.
أعددت فنجان قهوتي الصباحية، ودخلت الغرفة متسللًا حتَّى لا يصحو أحدهم فيعكر صفو فنجاني الصباحي كانت أنوار الغرفة مغلقة ولكن كان هناك ضوءًا يتسلل من الخارج كاشفًا جزءًا من

وجهها.
امرأة تخطت الثلاثين منذ عدة سنوات ورغم أنَّها بيضاء البشرة كنت أراها دائمًا سمراء ورغم أنَّها تحملت معي من المشاق الكثير كنت أتذكر لها طباعها السيئة فقط.
كنت أنسى وأتناسى تحملها معي أعباء الحياة وأتذكر فقط اِستشعاري بتقصيري المادي تجاههم.
كنت أنسى لها تحملها تربية الأولاد وحدها حيث أنني أعمل بوظيفة صباحًا وعمل إضافي بعد الظهر أنسى ذلك، وأتذكر فقط أنَّها دائمة العصبية والصراخ في وجههم وكنت أجيد القيام بدور الأب الحنون الذي يأتى لأولاده بما يحبون لأشعرهم أنني أحبهم أكثر منها ولكنهم وللعجب كانوا دائمي التعلق بها أكثر مني!!
تذكرتهم فنظرت إليهم كانوا وهم نيام كالملائكة، ولكن فور اِستيقاظهم يتحولون إلى شيطان رجيم.
كان يعيبهم الشقاوة الزائدة عن الحد.
وكان الناس ينظرون إليَّ أنني محظوظ لأنهم أولادي فهم يمتازون بالذكاء الفطري، وجمال الوجه والحيوية والنظافة الشخصية.
ولكنني كنت لا أرى فيهم سوى الحركة المفرطة، والصوت العالي والغباء حين أحاول المذاكرة لهم، ومع كونها مرات قليلة، ولكنني عقدت العزم بعدم تكرار هذه المحاولات مرة أخرى.
كان الولد تخطى عامه السابع بقليل أمَّا البنت فبعد أيام قليلة

ستعدو لتخطى العاشرة.
دائمًا الفقراء أيامهم تعدو سريعًا.
اِرتديت ملابسي ونزلت من بيتي مسرعًا لألحق الذهاب للعمل قبل أن تتعدى عقارب الساعة الثامنة صباحًا ويتم الخصم من الراتب الذي يكفي بالكاد.
بداية عملي كنت سائقًا في إحدى المصالح الحكومية، وقد اِلتحقت للعمل بها بعد دفع مبلغ مالي وأحضرت من الوسائط الكثير لاحظى بالعمل.
وبعد فترة من التعب بالعمل على خط الأتوبيس الخاص بالمصلحة والمعاناة مع الموظفين الذين يشعرونك دومًا أنَّهم أرقى منك فلو تأخرت يتم إلقاء اللوم الشديد عليك، ولو تأخر أحدهم عن ميعاده فلا تستطيع حتَّى لومه. يصرخ فيك الركاب أن تتركه وتذهب وهو يتصل بك يخبرك بأنه خلفك تمامًا ويستحلفك بأن تنتظره.
لو انتظرته طالك وأبلا من الصراخ والوعيد من الخلف ولو تركته طالتك لعناته في التليفون وحين يلقاك.
ولكن قدر الله أن بعد فترة ليست بالكثيرة خرج سائق المدير على المعاش فاختارني لأحل محله فتركت الأتوبيس غير آسف.
وللحق كان يعاملني معاملة جيدة ولم أشعر منه بالاستعلاء كما كنت أشعر من السادة الزملاء، وكأنَّه كلما اِرتقيت ارتقيت.

ما يميز العمل بالجهات الحكومية أن مواعيد الانصراف تكون بعد الظهر مِمَّا يجعل في اليوم بقية.
أنتهي من عملي أَمُرُ على منزل العائلة أقبل يد أمي وأجلس معها قليلًا إن كان في البيت طعامًا أكلت وإن لمْ يكنْ اِنصرفت.
أجلس على القهوة أَنتظره حتَّى يأتي يسلمني مفتاح التاكسي ويطعمني التوصيات اليومية ومنها أن لا أسرع بالتاكسي، ومحاولة المحافظة عليه، وعدم نسيان تفويله ورغم أنني لمْ أنسَ يومًا ولكنها ديباجة النصائح اليومية.
ينظر الناس عادة لسائق التاكسي على أنَّه يستطيع أن يذهب حيثما يشاء وقتما يشاء يتجول بالشوارع يرى أناسًا جدد وقتما يريد.
ولكن الحقيقة خلاف ذلك حيث أننا لا نرى وجوه الناس بل نراهم زبائن فقط نسمع منهم وجهتهم ونستجمع ذاكرتنا لنرى المكان وهل سيكون مزدحم، وهل سيدفع الزبون المبلغ المراد الذي يجعلنى أدفع قيمة الوردية ويتبقى معي مبلغ، ولو بسيط لسداد الجمعية آخر الشهر فالعمل الإضافى دائمًا يكون عادة خاص بالجمعيات، والتي ما إن أقبضها تنتهي ولمْ أستطعْ تحقيق حلمي بدفع مقدم تاكسي بدلًا من العمل عند الناس وما أن أنتهي من الوردية أذهب إلى البيت منهكًا أرتمي على أقرب كرسي أراهم يعدون نحوي لألعب معهم ولكنني أكن منتهيًا يأتي صوتها

سريعًا بالأمر للخلود للنوم حتَّى وإن كنا في فترة الإجازة المدرسية، ولكنه النظام الذي تعشقه زوجتي تعد لي الطعام يعقبه كوبًا من الشاي.
تبدأ بالكلام وتنتهي ولا أسمع شيئًا وكأنَّه أصابني صمم وهي للحق تحكي ولا تنتظر مني إجابة فهي تريد أن تخرج ما فيها من حكايات ومواقف مرت عليها اليوم هي تراها مواقف عظيمة تستحق أن تروي وهي للأمانة مواقف ليس لها أي أهمية مطلقًا.
وهي غالبًا تعلم أنني لا أسمعها ولكنها تنتظرني أن أعود من عملي لتسرد على مسامعي القصص.
أجلس قليلًا ولكني أفكر كثيرًا ثمَّ أخلد للنوم لمحاولة الاستيقاظ باكرًا لمواصلة باقي أيامي.
الأيام متشابهة والأحداث مكررة لا يوجد بها اِختلاف سوى أيَّام الإجازات الرسميَّة من العمل الصباحي.
ويكون التغيير في حدود ثلاثة حالات.
الحالة الأولى أنا أنام وأحاول أن أصحو متأخرًا في محاولة بائسة لإراحة الجسد المنهك، ولكنها دائمًا تبوأ بالفشل لأنني بحكم التعود أصحو في نفس موعدي المعتاد.
أمَّا الحالة الثانية فهي محاولة بائسة أخرى لإسعاد غيري علها تساعدني في إيجاد سعادتي فأخذ الأولاد لنزهة، ولكن لا بد من شروط لهذه النزهة.

أن تكون قريبة، وأن تكون غير مكلفة.
أمَّا الحالة الثالثة فهي محاولة أخذ التاكسي وردية إضافية لسداد قيمة الدروس الخصوصية، أو شراء هدية لأن إحدى إخوتي أو أخوة زوجتي رزق بطفل، أو حتَّى لشراء ملابس العيد للأولاد.
أمَّا التغيير في الروتين فهو ملاقاة الأصدقاء.
كان موعد لقائتنا كأنَّه يوم عيد. أحب مجالستهم وسماع حديثهم فكنت أتحدث قليلًا وأسمتع لهم كثيرًا كنت أحب طريقتهم في الكلام خصوصًا إسماعيل العرابي الذي رغم أنَّه أكثرنا ثراءً فهو أكثرنا تواضعًا ومحبة.
كنا نجتمع بشقة سمسم فنجد رائحة النساء تملئ المكان فهو رغم أنَّه غير متزوج فهو عاشق للنساء، وكان من عادته أحيانًا بعد اِتفاقنا على ميعاد للحضور إليه ولعب الاستميشن يتصل بنا لتأجيل الحضور قليلًا وعند حضورنا نجد إحداهن تنزل من شقته، وما أن نصعد تزكم أنوفنا رائحة عطر حريمي، ونجد بعضًا من الملابس الداخلية الفاخرة يلتقطها ويلقي بها في غرفة نومه، ويغلقها سريعًا هذه الغرفة التي ظلت قصة مقطوعة الأوصال بالنسبة إليّ فهي المنطقة المحرمة علينا جميعًا نجلس نلعب الاستميشن، ونشرب ما لذ وطاب ولو شعر أحدنا بالجوع فالثلاجة مليئة من الخيرات يمر الوقت وتنقضي السهرة، ويذهب كلًا منَّا إلى حياته وأكن أكثرهم حزنًا على الفراق فالوقت معهم

هو أسعد أوقاتي.
ما أشبه الليلة بالبارحة!
دائمًا ما أتذكر تلك المقولة عندما أتذكر أيَّام الطفولة تلتها أيَّام الشباب.
لماذا دائمًا تمر الأيَّام الجميلة سريعة؟
يمر شريط حياتي أمامي دومًا.
أراه وكأنني أعيشه مرة أخرى.
طفولة بها كثيرًا من الحرمان قليلًا من الرضا.
إحساس مرير أن تشعر أنَّك لا شيء.
مجرد رقم في تعداد سكان بلدك.
بلدك التي لا تشعر بك ولا تراك ولايهمها وجودك فوجودك عبئًا على ميزانيتها.
أنت شخصًا عادي تكمل مسيرة والدك الذي كان شخصًا عادي أيضًا وتنقل العدوى لأبنائك ليصبحوا أشخاصًا عاديين.
نحن من نسرق الفرحة من الزمن لأنه لا يجود بها لمثلنا.
ومن صفاتنا أنَّك تجد حتَّى أسمائنا بدون ألقاب كأننا شجر بلا جذور.
أن الفقر والحرمان لا يصنعان إنسانًا بل يصنعان رجالًا أقوياء في وجه الظروف عندهم من حب البقاء أكثر من غيرهم، وهذا ما يفسر أن حالات الانتحار تنتشر بين فئة الأغنياء عنها في مجتمعاتنا

الفقيرة.
ولكن لكي ترتقي من درجة رجل إلى درجة إنسان لا بد أن يحدث لك حالة من الاكتفاء مسبوقة بكثير من الرضا.
رضا بما قسمة الله لك ولأنه الله فهو سبحانه يعلم أن الفقر خيراً لنا من الغنى، ولو علم أن الغنى أفضل لنا لأغنانا.
هل هذا شعوري أم نوع آخر من المخدرات أتعاطاها لأزيد من جرعة الرضا أو لطرد شعور النقم من داخلي لأنني عندما أصبح ناقمًا ينكسر داخلي أشياء وأحاسيس كثيرة.
كنت أَستمع له في خطبة الجمعة، و كنت أكرهه حين يتحدث عن الصدقات والزكاة.
وكنت أضبط نفسي أحدث الله بما يجول بخاطري.
ولأن لكل منا طريقته في إخراج المشاعر السلبية التي يمتلئ بها كيانه.
فتجد من أعطاهم الله المال يخرجون طاقتهم السلبية في البذخ والإنفاق على الملذات بشكل مبالغ فيه.
ومن بسط الله لهم في الصحة يستدعون طاقتهم السلبية ويخرجونها على شكل طاقة.
أمَّا أمثالنا الذين يسمعون فقط عن المال ووفرة الصحة فكيف يخرجون طاقتهم السلبية؟؟
يخرجونها في الاستقواء!!

نعم الاستقواء على من هم أقل منهم سطوة أو مالًا أو علمًا.
فتجد منهم من يملك العلم يستعرض على من هم أقل علمًا.
لذلك ينتشر في بيئتنا الفقيرة ظاهرة ضرب الأزواج لزوجاتهم حتَّى أصبحت من المسلمات وعرف سائد.
يضربها أول الليل ويستلقيان على نفس السرير بنفس الغرفة ليلًا تضمهم نفس الجدران الصماء التي تشهد على جميع تناقضات النفس البشرية.
ولدت لرجل موظفا بالحكومة يتقاضى قروشًا آخر الشهر لا يستطيع إطعام أطفاله بها فالتحق بالعمل بعد الظهر ولو بالصحة وفرة وباليوم وقتًا لعمل عملًا ثالث.
وبدلًا من ترشيد الإنفاق وترشيد الإنجاب أنجب من الأطفال تسعة.
كنا نسكن في شقة صغيرة مكونة من حجرتين صغيرتين يفصلهم صالة صغيرة لا تتسع سوى لكنبة بلدي خشب يرقد عليها شلتة عتيقة لمْ تغادرها منذ أكثر من عشرين عامًا كانت إحدى الغرفتين خاصة بأبي وأمي والحجرة الأخرى خاصة بإخوتى البنات، وكنا نحن الشباب ننام محشورين بالصالة، وعندما يضيق بنا المكان كنت أَنتظر ذهاب أبي للعمل للفوز بالنوم على سريره الذي لا يختلف كثيرًا عن المرتبة الملقاة على الأرض والتي كانت بمثابة سريري المفضل.

وكان من البديهي أن تكون شقتنا في الطابق الأرضي مثلنا فنحن أيضًا بالطابق الأرضي في كل شيء.
كنت أعشقه رغم أنه السبب الرئيسي لمعاناتي حين أتى بي لهذا العالم السافل.
وكان لديه مبدأ أن من يستطيع منكم العمل فليعمل ليساعد في مصروفات البيت المفتوح فجميعنا بدأنا العمل في سن مبكرة، ولكن مع محاولة الحفاظ على التعليم.
أمَّا أمي فكانت قصة مختلفة أيضًا وكأنَّه كتب علينا أن تكون حياتنا كلها اختلافات، وكأن الفقر يصنع من البشر نماذج مختلفة وقويَّة كالصلب.
كانت بقروش قليلة تطعم إحدى عشر فردًا وأحيانًا ضيوفهم وعندما يتزوج أحدهم فلا مانع أن يأتي أو تأتي بزوجاتهم أيضًا ولقمة هنية تكفي مية وكثيرًا كنت أقوم من أمام الأكل قبل أن أشعر بالشبع حتَّى يكفي الأكل بقية الأفراد وقد تعلمت هذه الخصلة من أمي.
كانت توزع اِهتمامها علينا جميعًا، وكان كل فرد فينا يشعر أنَّه فتاها المميز أو بنتها المتفردة بحبها، وكان أبي يحبها حبًا لا يضاهيه حبًا آخر رغم أنني لم أسمعها منه قط، ولكن كل أفعاله ولفتتاته تشعرك بمدى حبه لها.
كنت أعافر في الحياة فعملت بجميع الأعمال صبي قهوجي وصبي

ميكانيكي وبائع متجول وأعمال كثيرة ولكنني لمْ أتميز بأي عمل ولمْ أتميزْ بالدراسة أيضًا.

ولكنني لن أنسى أقسى عمل عملته عندما عملت بفندق شهير من ذوات الخمس نجوم، وكان أقصى طموحي أن أَمُرُ من أمامه ولكنني عندما دلفت من البوابة أحسست أنني أصبحت إنسان كباقي البشر، ولكنني كنت واهم فمثلي لا يعدو أكثر من خادم للسادة أصحاب المال.

كنا نعمل في المناطق الخلفية محظور علينا أن نختلط بأسيادنا ولكنني كنت أَختلس النظر عليهم لأراهم كيف يعيشون ويلهون كان كل شيء لهم مباح.

كانوا يمتلكون كل شيء ولكن كان ينقصهم أهم شيئين ليفوزا بصفة إنسان كان ينقصهم القلب والأدب.

ولكن أكثر ما كان ينغص عليّ ليلتي عندما ينتهون من مجونهم وسهراتهم ويذهبون ويأتي دورنا في تنظيف قذارتهم.

وبعد الانتهاء من إزالة الأوساخ نستعد لأن نأكل بقاياهم، وكم من المرارة كنت أشعر بها ولكن من غير الآدمي أن يكون ممنوع علينا أن نذهب ببقايا الأكل إلى بيوتنا كان مسموح فقط بالأكل.

كان أكثر ما أخافه أن أحمل في قلبي حقد وغل لأولئك الذين يملكون من المال الكثير.

لأنني بالفعل لمْ أكنْ أحبهم إطلاقًا كنت أشعر أن الله أعطاهم

هذه الميزة لتكون حجة عليهم يوم القيامة أمَّا الفقراء أمثالي فلن تكون عليهم حجة.
ولأنني كنت أسمع أمام مسجدنا يقول أن أول ما يحاسب المرء يوم القيامة ماله فيما كسبه وفيما أنفقه وكنت أتناسى أنَّه من الممكن أن يكون سببًا في دخوله الجنة.
كنت أكرههم حقًا ولمْ أستطعْ أن أحبهم ولكنني في الوقت نفسه كنت أحب أحدهم ولمْ أستطِعْ أن أكرهه ولمْ أشأ أيضًا.
إنَّه إسماعيل العرابي الذي ولد وفي فمه ملعقة من الذهب الخالص ولكنه صديق الطفولة، وصاحب فضل على لا يمكن نسيانه وإن حاولت.
كنت وعائلتي أفقر عائلة بالحي وكانت عائلة إسماعيل أغنى عائلة، ولكننا لمْ نكنْ نشعر أنَّهم أفضل منا لأنهم حقًا أناسًا متواضعين.
كنت أشعر أن عمري يمر سريعًا دونا عن بقية الناس.
وكان يمر شريط الذكريات والعمر الفائت أمامي من الطفولة حتَّى أعتاب الشيخوخة مرورًا بمرحلة الشباب التي ضاعت في محاولات بائسة للفوز بمقعد في هذه الدنيا، ومحاولة الاستمرار على قيد الحياة كان الأطفال في الطفولة ينتظرون الإجازة الصيفية للمدارس للاستمتاع فمنهم من يذهب للمدن الساحلية لقضاء الإجازة فى المصيف، ومنهم من يذهب لممارسة الرياضة ومنهم

من يريدها للارتياح من الدراسة والملل المستمر أمَّا أنا فأنتظر الإجازة لملامسة المال والفرحة فى نهاية الأسبوع وأنا أقبض على راتبى الأسبوعي الصغير أشق الأرض شقًا للذهاب لأمي لأضع فتات النقود بين يديها ناظرًا في عينيها في محاولة لأرى الفرحة تشع منهما وكانت تشعرني أن الأموال القليلة التي أتى بها كل أسبوع هي أجمل أموال تأتيها من جميع إخوتي فكنت أنسى تعبي طوال الأسبوع.

مرت بعض السنوات القليلة وأنا ما زلت أحاول المعافرة بين الدراسة التي تزداد صعوبة وبين أعمال ليس لها مستقبل، ومردودها ضعيف ولكن البيت بحاجة لكل قرش.

فكنت أقضي وقتي صباحًا بالمدرسة ومساءً بالعمل.

نسيت أشياء كثيرة في خضم الحياة.

نسيت أن أحب إحداهن فالحب رفاهية ونسيت أن أشتهي المأكل والملبس فما زاد عن المألوف فهو غير مطلوب.

والمألوف في عالمنا هو القليل من الأكل وما يستر من الملبس.

حتَّى زوجتي تزوجتها لأنها تشبهنني وتشبه أمي، وعائلتها تشبه عائلتي.

تزوجنا ليس بدافع الحب، ولكن بدافع محاولة المحافظة على السلالة.

السلالة التي لو كان الأمر بيدي لأمرت بإبادتها حتَّى لا تتكاثر.

دائمًا أشعر أننا نعيش بداخل أتوبيس كبير.
ناس قاعدة جنب الشباك بتشم هوا وبتتفرج على الشارع وعايشة حياتها تأمل.
وناس قاعدة جنبهم اللي رايح واللي جاي يخبط فيهم بس كويس إنهم قاعدين أساسًا.
وناس واقفة على جنب محدش بيخبطهم بس واقفين.
وناس بقى واقفين في نص الأتوبيس مدعوكين ضرب وزق وريحة وحشة ومخنوقين على الآخر.
وناس واقفة على الباب؛ لأن ملهاش مكان جوة ودول اللي دايمًا بيقعوا من الأتوبيس.
أخاف من عقاب الله لي لتأففي الدائم من حياتي دائمًا ناقم على ظروفي.
عندما أحدث نفسي في لحظات الصفاء القليلة أجد أن الله منحني أشياء جميلة كثيرة فأنا أملك زوجة جميلة ونظفية وتتمنى سعادتي في حين أن أدهم يفتقد ذلك.
ووهبني الله أبناء هم قرة عيني في حين أن إسماعيل رغم ما يملكه من المال يفتقد ذلك وأعمل وأحب عملي بعكس أناسًا كثر.
أن الإنسان دائمًا ينظر للشيء الذي لا يملكه ويتمناه ولا ينظر لما يملكه ويتمناه غيره.
إحساس فظيع أن تشعر أنك وقعت من ذاكرة العالم لقد نسيك

العالم بل أنه لمْ يشعرْ بك أصلًا.
من الجميل في حياة الإنسان أن يستمتع بالحياة فالحياة حلوة ولكن لمن يملك ولكننا نحن معشر المعدومين ننتظر مرور الأيام وانتهاء الشهور وانقضاء الأعوام.
ونتمنى اِنتهاء حياتنا ونشعر بقرارة أنفسنا أن الجنة يملكها الفقراء المعدومين في الدنيا.
فكيف يتم حرمانهم في الدنيا وكذلك يتم حرمانهم بالآخرة؟
لكلا منا علامة فارقة بحياته.
يتوقف عندها الزمن يعيد ترتيب أوراقه يقيم الماضي، ويحلم بالمستقبل بعد محاولة تغيير الحاضر.
كانت لحظة توقف عندها الزمن بل لمْ يتوقف عندها الزمن فحسب ولكنه رجع للخلف.
بعد إن قمت بتوصيل زبون وأنا عائد وكنت أعلى الدائري، وكانت عقارب الساعة تشير لمنتصف الليل اِنفلتت عجلة القيادة من يديّ فجأة ورأيت الناس من الأعلى ومن الأسفل كانت السيارة تتقلب في الهواء.
لمْ أشعر بنفسي رأيتني أمام سحابة بيضاء يخرج من ورائها أبي مبتسمًا كعادته.
نظرت لنفسي وجدتني رجعت طفلًا صغيرًا نفس ملامحي التي رأتيها في صوري القديمة كان شريط حياتي يمر أمامي.

رأيتنى عندما ولدت وكيف تعبت أمي في ولادتي كانت تصرخ، وكنت من تحتها أصرخ وكانت الداية تصرخ فيها قائلة (اِحزقي خلي الواد ييجي).

كانت الغرفة مليئة بالصراخ فجأة صمتوا، وظللت أصرخ تمَّ غسلي ولفي وإعطائي لأبي الذي كان ينتظرني بالخارج قبلني، وأعطاني لأمي لتمنحني أول مسببات البقاء أرضعتني وشعرت بدفء مشاعرها تماما مثل السائل الخارج منها لإطعامي.

مرت الأيَّام التالية والشهور بل والسنوات سريعة.

وجدتني أصبحت شابًا صغير في السن رجلًا كبيرًا في المسئولية الملقاة على عاتقي كهلًا في مشاعري.

عندما تكون شابًا صغيرًا، ومطلوب منك أن تساهم في مصروف البيت، وتساعد نفسك وتتدبر أمورك.

كنت في الإجازة الصيفية أبحث عن أي عملًا يدر أموالًا.

لا أتذكر في مرحلة المراهقة سوى العمل الكثير والمال القليل والراحة الشحيحة و (وفاء).

حتَّى المشاعر محرمة على الفقراء.

أتذكر حينما كنت أراها كان قلبي يرتجف يرقص يتزلزل.

كنت حينها أعمل في ورشة الأسطى بيومي الميكانيكي وأن الأسطى بيومي رجلًا غليظ القلب يتفنن في ضرب صبيانه لاتفه الأسباب كان رجلًا معقد، ويخرج عقده على الأطفال أمثالنا ولأنه يعلم

تمام العلم أننا نحتاج لكل قرش يعطينا إيَّاه يوم السبت من كل أسبوع فكان لا يتوانى في إذلالنا.

عندما رأيتها أول مرة أحسست بأن شيئًا ما تحرك بداخلي كانت تحمل عامود من الأكل ودخلت ورشتنا وضعته أمام الأسطى بيومي ومضت.

وعندما سألت عرفت أنها ابنته!!

كيف لرجل مثل الأسطى بيومي أن يتمكن من إنجاب بنت جميلة ورقيقة كوفاء؟

اِستمريت أحبها طوال الإجازة الصيفية كنت أَنتظر ميعاد غذاء الأسطى حتَّى أراها.

كان حبًا بريئًا صامتًا صغيرًا.

لمْ يكنْ لي أحدًا أصارحه سوى أمي فصارحتها.

كانت رغم إنها لمْ تنلْ قسطًا وفيرًا من التعليم إلَّا أنها كانت تملك عقلًا راجحًا وقلبًا دافئًا وخبرة لا يستهان بها.

أعطتني درسًا لمْ ولن أنساه ما حييت.

أعلمني أن الحب لا يأتي قبل الزواج، ولا يجوز الحب سوى عندما تكون مقتدر على فتح بيت؛ لأن بنات الناس ليسوا لعبة بأيدينا.

فتركت حب وفاء أو أنحيته جانبًا.

ولكنه للحق ترك وما زال يترك أثرًا في نفسي.

إنَّه الحب الأول الذي من المستحيل نسيانه.

مرت أيامي التالية سريعة أيضًا.
تعلمت الاعتماد على نفسي فقط فقطار العمر يمضي سريعًا ولا نستطيع مشاهدته إلَّا في محطة النهاية.

وفجأة وبدون مقدمات أتت محطة النهاية لأبي ولا بد أن ينزل من القطار.

مات السند وانكسر الظهر.

غسلناه وكفنناه وحملناه ودفنناه وانتهى الأمر.

مشيت في الشوارع مساءً مستغربًا كيف الناس تعيش حياتها بطريقة طبيعية.

شعرت أن لا بد أن تتوقف الحياة بموت أبي.

ولكنه القطار الذي يمضي سريعًا، ولا نستطيع مشاهدته إلَّا في محطة النهاية.

ثمَّ مضت الشهور اللاحقة سريعة أيضًا وكأنه قدرنا أن تمضي الأيام سريعة لنتذكرها لاحقًا بشيء من الحسرة أننا لمْ نستطعْ أن نعيشها بطريق أفضل.

وجدتني في ليلة العمر فجأة، ولكن ما المقصود بليلة العمر هل المقصود العمر الفائت أم العمر الآتي؟

أم المقصود العمر الجميل أم العمر المر؟

عندما أغلق علينا باب شقتنا رأيتها كأنني أراها للمرة الأولى.

وجدت أمي في ملابس زفاف نفس ضحكتها نفس ملامح وجهها

الذي يخبرك أن الزمن مر من هنا.
ولكن لماذا أراها أمي؟ هل لحنانها الفياض؟
وقد كان هذا سبب حنوي الدائم تجاهها، وعدم محاولة إيذائها رغم ضيق الحياة.
وللحق كانت هي نعم الزوجة، ولكنني كنت دائمًا أخونها وأنا نائم معها فكنت دائمًا أتخيلها وفاء أشعر بأنفاسها وأتخيل رائحتها ألمس دفء جلدها، وما إن انتهى منها أرجع فأراها مرة أخرى.
ولهذا السبب علمت لماذا يغلقون الأنوار عند ممارسة طقوس الزواج.
حتَّى يتمكن كل طرف من تخيل ما يريد كيفما يريد.
ثمَّ جاء الأولاد لأرى القطار، وقد مر من فوقي ليجعلني أشلاء كل جزء يملكه شخص.
كان شريط عمري يمر أمامي حتَّى ركبت التاكسي.
و قمت بتوصيل زبون وأنا عائد وكنت أعلى الدائري، وكانت عقارب الساعة تشير لمنتصف الليل اِنفلتت عجلة القيادة من يديّ فجأة ورأيت الناس من الأعلى ومن الأسفل كانت السيارة تتقلب في الهواء.
لمْ أشعرْ بنفسي رأيتني أمام سحابة بيضاء يخرج من ورائها أبي مبتسمًا كعادته.
حينها فتحت عيني لأجد إحدى الممرضات أمامي تنادي على

الدكتور، وتخبره أنني أفقت وأجد زوجتي أمامي هي وأحد إخوتي.
كانت الدموع تملئ العيون.
علمت فيما بعد أنني كنت في غيبوبة، وعلمت أيضًا أنه مر على اِستلقائي على سرير المرض أكثر من شهر.
من يصدق أنه مر شهر وأنا غير متواجد في هذا العالم سوى جسد فقط.
أفقت من غيبوبتي واستشعرت لحظتي الفارقة وقررت تغيير عالمي البائس المحطم لعالم أكثر إشراقًا وأعدُّ نفسي أن أحاول تعويض ما فات.
وكان أول قراراتي أن أقتل وفاء بداخلي سأضيء الغرفة عند ممارسة طقوس الزواج سأرى وجه زوجتي لن أرى وفاء، ولن أرى صورة أمي.
حاولت وما زلت أن أرى الجانب المضيء بحياتي أرى زوجة مطيعة وجميلة، أرى أولادي في غاية الذكاء.
ورغم ضيق الحياة كنت أبحث فى وسط العتمة عن شعاع النور وأحاول أن أستشعر نهاية الطريق.
جعلت همي وأملي في أولادي حاولت أن أحقق من خلالهم ما فشلت في تحقيقه لنفسي.
بدأت أهتم بدراستهم والسؤال عنهم باستمرار رغم ضيق يومي، وحاولت قدر اِستطاعتي تعليمهم أي نوع من أنواع الرياضة.

ورغم أنه موضوع شاق، ومكلف للغاية حيث بدأت أدخر جزءًا بسيطًا من وردية التاكسي لتكون تكلفة التمارين، ولكنه في ذات الوقت كان شيئًا ممتعًا للغاية والأروع هو الشعور أنَّك لا تدخر جهدًا أو مالًا لسبيل تحقيق غايتك، ولتحقيق حلمًا من الممكن أن ينتشل عائلة بأكملها من مستنقعات الفقر، ونقلها إلى مراتب الصفوة.

بعد الحادثة تغيرت أشياء كثيرة جدًا ولكن ظلت علاقتي بأصدقاء الطفولة كما هي.

كنت أحب تجمعاتهم، وسهراتهم.

كانت أقسى لحظاتي حينما أقف أمام المرأة فأجد الخيوط البيضاء، وقد سرحت برأسي، أشعر أن العمر ليس به قدر ما مضى، ولكن لا بأس فقد حققت من الإنجازات التي تشفع لي مرور قطار العمر ذلك إن اِعتبرنا أن الزواج والإنجاب إنجازات.

ولكن ما ينغص عليّ حياتي محاولتي تحقق حلمي الذي يبدو بسيطًا لغيري عصيًّا عليّ.

أمنيتى أن أمتلك تاكسي أعمل عليه ظل الحلم يرادوني ولن أنسى يوم أن تحقق الحلم لحظتها شعرت أنني اِمتلكت الدنيا، وما فيها كنت بالمقطم مع أصدقاء طفولتيـ وكنت بحالة نفسية سيئة تذكرت حالي فبكيت.

يومها رجعنا من المقطم، وطوال الطريق كان الكلام شحيحًا الكل

سرحان يفكر.
وصل شقتي دخلت لأجد الأولاد نائمين وأمهم أيضًا وما إن شعرت بي عرضت عليّ أن تقوم لتحضر لي العشاء فشكرتها، ونامت.
كنت أود الجلوس بمفردي قليلًا ممرت حياتي أمامي ظللت أفكر حتَّى أذن لصلاة الفجر اِغتسلت، وتوضأت وصلت الفجر ووضعت رأسي لأنام فاستشعرت قرب ربي مني فناجيته بشدة، وبكيت حتَّى اِبتلت وسادتي فنمت.
في اليوم التالي وقبل اِستلامى وردية التاكسي وصلني تليفون من إسماعيل يريد مقابلتي حاولت الاعتذار حتى لا أتأخر على الوردية ولكنه رفض.
ذهبت إليه بالمحل وجدته كما لم أجده من قبل كانت الابتسامة تملئ وجهه أكثر مِمَّا مضى.
بعد إن تكلم عن أننا أخوة وأصدقاء الطفولة أخرج من درج مكتبه مفتاحًا ووضعه أمامي قائلًا:
مبروك يا عم سامح ده مفتاح التاكسي بتاعك.
لمْ أشعر بنفسي شعرت أن الزمن توقف، وقلبي توقف معه.
لمْ تسعفني الكلمات لمْ أعرف هل أقبل أم أرفض؟
عقلى يحدثني ألَّا أقبل فهي تبدو كمساعدة وأنا أحاول ألَّا أقبل المساعدة، ولكن قلبي يتمنى تحقيق حلمي.
طال الصمت حتَّى قطعه إسماعيل منتصرًا لقلبي على شطحات

عقلي.
على فكرة يا سامح التاكس ده من هدية ولا مساعدة ده سلف يا غالي.
كانت محاولة لطيفة منه لكي أقبل وقد قبلت فمن له أن يرفض أن يتحقق حلم عمره وبيد أعز أصدقائه.
حقًا إنَّها أسعد لحظة بحياتي.
كم أنت عظيم يا إسماعيل!

الرحلة الأخيرة
(١)

كنا جلوسًا على ناصية شارعنا في حينا الشعبي البسيط البعيد كل البعد عن الأحياء المعقدة، والتي استمدت تعقيدها من خلال علاقة قاطنوها ببعضهم البعض.
فنحن نسكن إحدى الشوارع المتفرعة من شارع شبرا، والتي اِستمد الحي اسمه من اِسم الشارع فأصبح حي شبرا العتيق والذي تأسس عام ١٨٠٩ أي أن شارع شبرا أعرق من دول كاملة.
يمتاز حينا ببساطة ناسه، والعرف عند أهل شبرا أن الدين لله.
حتَّى أننا كبرنا، ولمْ نكنْ نعلم أن عم سعيد البقال صاحب المحل العتيق على ناصية شارعنا مسيحي الديانة.
وكيف لنا أن نعرف ذلك فهو يفعل أفعالنا، ويعيش مثلنا لا يأكل أمامنا في رمضان وفي وقت الإفطار يغلق دكانه وأولاده يرتدون الملابس الجديدة في عيد الفطر معنا.
غريب أمر هذا الحي.

وكان أول معرفتنا بمعنى مسيحي ومسلم وأن هناك فوارق بين الديانات السماوية حدث ذلك حينما شعر صديقي سامح عرفة بالانجذاب تجاه ابنه عم سعيد، كنا أطفال ولكن المشاعر تخلق بالفطرة مع الإنسان لحظة ميلاده وليس لها عمرًا ولا تقاس بعدد السنين.

عندما صارحنا بمشاعره تجاه جيهان ابنه عم سعيد البقال شعرنا بشيء مختلف إحساس غريب شعور لمْ يسبقْ أن عشناه.

ولكنه ذهب لمصارحة والدته التي بدأت تفهمه الفرق بين المسلم والمسيحي وكيف إن زواجهم شيئًا غير مرغوب به لأن الديانة مختلفة.

ديننا لا يرفض ذلك ولكن المجتمع لن يقبل ذلك بسهولة.

وكان حديثه غريبًا على مسامعنا، ولكننا تفهمنا الفرق سريعًا وكانت صدمة عرفة كبيرة ولكننا كنا أطفالًا فلمْ يدم الحزن كثيرًا ولكننا كنا دائمًا نتذكر تلك القصة عندما نراها تمر أمامنا من الوقت للآخر.

شبرا لا تشعر من بها غني ومن فقير الكل يسكن نفس البيوت وأولادهم يدخلون نفس المدارس، والجميع يجلس على نفس المقاهي البلدي جنبًا إلى جنب.

في طفولتنا لا نشعر بالفوارق.

لا نعلم أول مرة تقابلنا فجأة وجدنا أنفسنا أصدقاء.

كانت السهرات تحلو على ناصية شارعنا.
مر الرمق الأول من حياتنا دفعة واحدة لا أتذكر منها الكثير.
فجأة صحوت من غفوتي البسيطة لأجد أننا نمر بمرحلة الثانوية.
حينها بدأنا نشعر بالفوارق!!!
كنا أربعة شباب صغار لكلًا منا قصة وظروف لمْ يشأ اختيارها ولكنه تعايش معها.
كان إسماعيل العرابي الأوفر حظًا فقد نال حظًا كبيرًا من المال.
أمَّا سامح عرفة فهو رمز الحرية شاب صغير سافر أبوه ولحقته أمه وهو يعيش وحيدًا.
والثالث سامح عبد الفضيل فهو الوحيد الذي يعمل، ويكسب من عمل يده بل ويساعد أهله.
أمَّا أنا فأحظى بالوسط في كل ذلك فأهلي ميسوري الحال وأمتاز ببعض الحرية لكنني أعتمد على نفسي في كثيرٍ من الأمور.
كنا نتقابل بدون ميعاد سابق يكفي أن يطلق أحدانا صافرة ذات نغمة مميزة لنطل جميعًا من البلكونات والشبابيك وفي غضون ثواني أو دقائق نتجمع على ناصية شارعنا نتكلم، ونتسامر في كل شيء وأي شيء.
إن الصداقة في هذه العمر الصغيرة تجعلك أمام أصدقائك كتابًا مفتوح.
لا تضطر أن تتكلم عن نفسك فالكل يعرفك.

نشأنا بنفس الحي، ونفس الشارع ولكن الظروف مختلفة.
ولكن كان بيننا كيمياء من الحب فظللنا أصدقاء رغم جميع الفوارق.
في الحقيقة كانت الفوارق كثيرة وكبيرة.
فوارق مالية وجسدية وحياتية ولكن حينما يملئ الحب قلبك يطرد أي ذرة كره فيه.
مرت بضع سنوات أخرى وقد وجدنا أنفسنا فجأة على أعتاب مرحلة المراهقة.
مرحلة من مراحل التكوين الجسماني والنفسي الخطرة والتي أظهرت وكشفت جانب آخر من الفوارق.
تبًا لجميع الفوارق بين البشر!
لقد خلقنا الله من نفس الطين ولكننا عندما مشينا على الأرض أعجبتنا أنفسنا فأظهرنا جميع عيوبنا، فأصبح التطاول بين البشر طبيعيًّا التفاخر بالحسب والنسب طبيعيًّا شعور أنَّك أفضل من غيرك لمجرد أن من الله عليك بنعمة المال شعورًا طبيعيًّا.
حتَّى من وهبه الله الأولاد من دون حول له ولا قوة يتفاخر بذلك.
إنَّها مشاعر أصبحت طبيعية صادرة من أناس غير طبيعية.
تمنينا أن نعيش مرحلة المراهقة بطريقة مختلفة فكنا نحب السفر فكان لنا على الأقل رحلتان أحداهما صيفية إلى الإسكندرية،

والأخرى شتوية إمَّا للواحات أو الأقصر وأسوان.

ولكن ما كان يعكر صفونا شعورنا بالاختلاف الأول وهو وجود وفرة من المال، فكان سامح عبد الفضيل أقلنا إحضارًا للمال، وكان يرفض أي محاولة ملموسة من المساعدات، وقد كان إسماعيل العرابي يحاول مساعدته بشتى الطرق الظاهرة منها والباطنة فتارة يضطر لعزوماتنا جميعًا حتَّى لا يصدر الإحراج لصديقه وتارة أخرى عندما يتولى جمع المال اللازم للوازم الرحلة حيث كنا نحب أن يكون هو المسئول عن جميع مصروفات الرحلة من مأكل ومواصلات وخلافه فكان يعلمنا أن نصيب كل فرد من المصروفات مبلغ أقل بكثير من الحقيقي، وكان يتكفل هو بباقي مصروفات عبد الفضيل.

كان يفعل ذلك عن حب وإحساس بالمسئولية تجاه صديق طفولته كما كان يفعل عندما يريد أن يشتري لصديقه هدية، وهو يعلم مقدمًا أن صديقه سيرفض فكان يشتري الملابس على مقاس عبد الفضيل الذي يصغره حجمًا بكثير ويخبره إن اِشترى ملابس جديدة ولمْ يجدها مقاسه فيهديها له.

هل كان عبد الفضيل يعلم بمحاولات صديقه لمساعدته ويتظاهر بغير ذلك؟

لا أنسى أول رحلاتنا إلى الاسكندرية.

حينها لمْ نكنْ تجاوزنا المرحلة الثانوية بعد.

كنا وقوفًا على ناصية شارعنا أنا وعبد الفضيل وعرفة وكنا نعلم أن إسماعيل مع والده في محل الذهب إلى يمتلكه فقد كان من عادات والده أن يأخذ إسماعيل معه ليتعرف الناس عليه لأنه من سيورث عنه المحلات والأموال.

وجدنا إسماعيل أتيًا من بعيد يركب السيارة بجانب والده وعندما مرا بنا وقفت السيارة ليلقي علينا والده التحية وينزل إسماعيل من السيارة أمامنا وعلى وجهه اِبتسامة كبيرة تملئ وجهه الممتلئ بالفعل.

لمْ ينطقْ بكلمة واحدة فقط وضع يده بجيبه وأخرج كروت تشبه كروت الكوتشينة رافعًا إيَّاها أمام وجوهنا أخذنا ننظر للورق المرفوع أمام أعيننا.

إنها تذاكر سفر بالقطار!!!

أخيرًا سيتحقق الحلم!!

لمْ ولن أنسى تلك الرحلة مهما حييت.

كانت بداية شعوري بالاختلاف.

الاختلاف في أشياء كثيرة. اِختلاف في المال. اِختلاف في الأجسام والأشكال اِختلاف في الطبائع. اِختلاف في التفكير وخصوصًا الاختلاف في التفكير.

سمسم كان مسيطر على تفكيره البحث عن فتاة أو امرأة حتَّى ولو اضطر لدفع المال.

وحدث ما لا يمكن نسيانه.
كنا نيامًا وجرس الباب يدق بعنف.
كان يومًا مُشمسًا والشمس تزورنا من جميع الاتجاهات تلهب أجسامنا وكلما زادت الرطوبة زاد العرق.
قمت متثاقلًا يتبعني كيفو ويأتي صوت سمعة من الداخل زاعقًا سائلًا من الطارق؟
فتحت الباب ففوجئت به والابتسامة تعلو وجهه ممسكًا بيدها... فتاة تخطت الثلاثين ملامحها غير واضحة من كثرة المكياج كان وجهها مليء بالألوان الأحمر والأخضر وبعضًا من الأزرق
ألجمتني المفاجأة توقفت للحظات!
لمْ يعر لاندهاشنا اهتمام سحبها كما تسحب البعير وتركنا.
لمْ يغب كثيرًا وخرج ودعا كيفو للدخول.
دخل كيفو وترك مخي مضطربًا يحاول الاستيعاب.
خرج كيفو ودعاني للدخول.
دخلت من باب الفضول.
كانت ممدة أمامي تغطي جسدها بملاءة.
كانت أول مرة أرى فيها اِمراة ممدة أمامي وبانتظار أن ألقي بنفسي عليها أفرغ بها رغبتي كما الحيوانات.
دعتني إليها جلست على طرف السرير، وأخذت أَنظر إليها إقشعر جسدي وشعرت بالغثيان ولمْ أستطِعْ.

لمْ أستطِعْ لمسها أو حتَّى التفكير فيها كامرأة يلمسها من يدفع أكثر.
كيف للإنسان أن يمارس الرغبة بدون حب؟
صدق من قال أن الجنس يمارس بالعقل قبل الأعضاء.
ودار برأسي ما الذي يدفعها لهذا العمل؟
ولكنني خرجت كما دخلت لم أمسسها.
كنت أتشوق للتجربة، ولكن مع مرور الوقت حمدت الله أنني ظللت عذراء.
سمعة موقفه ثابت باستمرار لا يفعل الخطأ، ولا يحاول التجربة ولو من باب الفضول يعرف ما يحتاجه ويسعى إليه.
أمَّا كيفو فكان ما يزال حديث عهد بالمخدرات و بالجنس أيضًا ولكنه منساق دائمًا وراء التجربة، وكأنه مسلوب الإرادة لا يريد أن يفكر حتَّى.
كان ذلك نابع من إحساسه بالدونية؟
ولو ذلك صحيح فهل سيحاسبه الله على مرضه النفسي؟
وهل الإنسان مسير أم مخير؟
لو كان الإنسان مسيرًا فلم يحاسب الله؟
ولو كان مخيرًا فلماذا يوجد منا من يولد بديانات مختلفة.
كانت أول مرة أتعاطى المخدرات، وكان ذلك أيضًا من باب الفضول.

كم أكره الفضول الذي يجعلني أفعل ما لا أرضاه، ولكنه ذلك الشعور الذي لا زال يلازمني حتَّى الآن.

مرت الرحلة بسلام، ولكنها تركت أكبر أثر في حياتي.

ففيها قمت بتجربتين في غاية الغرابة.

ولكن أكثر ما كنت أفكر فيه هو سمعة.

رغم أنَّه رافض كل ما نفعل لمْ يتخذ أي قرار إمَّا بالرجوع للقاهرة أو بنهرنا حتَّى نرجع عمَّا نفعل، وكأنه يتلذذ بالمشاهدة

وبذلك انتهت الرحلة الأولى.

ومثل الرحلة الأولى مرت رحلات أخرى كثيرة.

رغم أن كلًا منا أصبح له عالمه الخاص، ووقت ليس به وقت لممارسة الأنشطة القديمة كالسهر للعب الاستميشن والسفر لتجديد النشاط.

لكننا كنا نحاول سرقة الفرص لاستعادة الذكريات التي كنا نظن أننا نسيناها في زحام الأيام، ولكن بمجرد أن يقابل بعضنا البعض نراها تتدفق أمام أعيننا.

فاجأنا عرفة كعادته، ونحن نلعب الاستميشن بـنه خطرت بباله فكره لسهرة جميلة وجديدة وهي الذهاب لأطراف الصحراء، مصطحبين معنا لحوم للشواء وقضاء الليل في المناطق البكر.

كانت فكرة نموذجية لسهرة تلبى جميع الاحتياجات.

حيث اللحم والشواء ورائحة الدخان التي ستسلب عقل سمعة.

أمَّا عرفة فلن ينسى أخذ زجاجة الخمر في حضنه والسفر بها لأي مكان!
وكيفو لن يكف على حشو السجائر بما لذ وطاب من أنواع الحشيش لقضاء السهرة.
وستكون فرصة عظيمة بالنسبة لي للتفكير في الخطوة القادمة من حياتي ولتقييم علاقتي بعائشة.

(٢)

جلسنا نلملم ذكرياتنا بعد اِفتراشنا الرمال.
عجيب أمر الذكريات.
عندما نتذكرها لا نعرف هل نحزن أم نفرح؟
هل نحزن لأنها أيام لن تعود أيام كانت مليئة بما تهواه وتترجاه النفس!
أم نفرح لأننا عشنا هذه الذكريات!
فلم يمر قطار العمر دون المرور على محطات السعادة.
إننا لم ننزل حقًا في تلك المحطات ولكن عبورنا بها كانت متعة.
كيفو يمارس هوايته في شَيّ اللحم الراقد على الشواية الفحمية.
سمعة يعد الأطباق ويناولنا لنأكل.
ضحكنا كما لمْ نضحك منذ زمن بعيد.

كان ذلك يحدث، ونحن ما زلنا نلملم الذكريات نتذكر الماضب القريب والسحيق نضحك كثيرًا ونشرد قليلًا وأكلنا حتَّى اِمتلئت البطون.
كان الجو خريفيًّا وبدا القمر منيرًا أكثر من ذي قبل كان يضيء جميع ما حولنا.
اِنتصف الليل، ونحن نفترش الأرض بعد إن إقدنا نارًا لتجنبنا شرور الليل من الحيوانات الشاردة في الصحاري.
وبعد إن امتلئت البطون جاء وقت ذهاب العقول.
دارت الكؤوس بين أيدي ثلاثتنا، وكعادة سمعة لمْ يستجب لإلحاحنا أن يجرب وإن مذاقها جميل، وكان عرفة يحاول كعادته إثبات أن الخمر لا يذهب العقل بل يجعل الإنسان لطيفًا يحب الكلام والمجاملات.
وبعد دوران الكؤُوس جاء وقت الدخان.
كانت السيجارة تأخذ دورتها بيد كيفو الذي يتمعن في إشعالها وأخذ النفس الأول منها وكأنه يفض بكارتها، وتنتهي بيديّ مرورًا بعرفة الذي ما زال يحتفظ بالكأس باليد الأخرى.
وفي لحظة توقف فيها الزمن خطف سمعة السيجارة من يديّ وسحب نفسًا عميقًا ليخرج الدخان غزيرًا من أنفه وكادت أن تخرج روحه مع الدخان من كثرة السعال اِحمر وجهه وكاد أن يختنق.

كان ذلك يحدث، ونحن ننهار من كثرة الضحك على وجهه الممتلئ الذي تحول لونه إلى الأحمر الداكن وخدوده التي أخذت بالتحرك نزولًا وصعودًا من كثره السعال.
هدأ قليلًا ولمْ تمرْ سوى ساعة حتَّى أصبح سمعة يدخن الحشيش وكأنه يدخن منذ طفولته فقط اِستعان ببعض نصائح كيفو في كيفية أخذ النفس وإخراجه مرورًا بجهازه التنفسي صعودًا إلى خلايا مخه.
ظللنا على حالنا نأكل ونشرب وندخن حتَّى أوشك الليل على الذهاب، وبدأ الضوء يشق ظلام الليل.
النار التي أوقدناها بدأت مرحلة الانطفاء، وكأنها نذير بأن رحلتنا انتهت ولا بد لنا من الذهاب.
لملمنا أغراضنا كما لملمنا ذكرياتنا الفائتة.
كنا نترنح كنا شبه غائبين عن الوعي، ولكن لا ضير فنحن في مكان ليس بالبعيد، ولكن ولأول مرة نصبح جميعًا فاقدي الوعي فاقدي السيطرة على حواسنا حيث أنَّها المرة الأولى التي يلحقنا بها سمعة.
حتَّى إنه أصبح غير قادر على قيادة سيارته الكبيرة فاقترحنا ضاحكين أن يقودها عرفة على أن يقم بتوصيلنا جميعًا.
تحرك عرفة بالسيارة.
مر وقت لا نعلم هل قصر أم طال، ولكن عقارب الساعة كانت

تخبرنا أنَّه مر وقت طويل ولكننا شعرنا أننا لمْ نغادر مكاننا، فالرمال كانت نفس الرمال اللون الأصفر الممتد على مرمى البصر في سكون مترامى الأطراف والسماء كما هي حتَّى الشمس كانت تتحرك معنا أينما نذهب.

التغير الوحيد الذي شعرنا به هو اِنتصاف الشمس في كبد السماء مِمَّا يعني أنَّه مر وقت أطول عندها، وعندها فقط أيقننا أننا تهنا!

أحسسنا أننا لن نرى غير الرمال وسندفن بها.

بدأ سمعه في الانهيار وظل يبكي، وهو يذكر زوجته التي لن يراها مرة أخرى.

وعلى غير المتوقع بدا أن عرفة على وشك الانهيار هو الآخر رغم أن شخصيته توحي بالتماسك وكان انهياره بسبب شعوره بالمسئولية تجاه ما نحن فيه فهو من جعلنا نشرب حتَّى توهنا عن الوعي قبل أن نتوه عن الطريق بسببه أيضًا حيث أنه هو من يتولى قيادة السيارة التي ستصبح كفنا لأربعة من الشباب الذي وإن طال أو قصر الزمن سيجدهم من سيجدهم هياكل عظمية يرقدون داخل سيارة ملقاة بالصحراء.

بدأ قيظ الشمس يشتد على رووسنا مِمَّا جعلنا في حالة من الجنون.

وعلى غير المتوقع أيضًا كان كيفو أكثرنا هدوءًا، وهو من اقترح أن

نخرج من السيارة نهارًا؛ لأن معدنها سيجذب أشعة الشمس بعد تحويلها إلى لهيب.
خرجنا وقمنا بنصب خيمة من غطاء السيارة، وقد كان محقًا فالجو داخل الخيمة بأي حال من الأحوال أفضل من نار السيارة.
مِمَّا يدعونا لنفكر في هدوء.
بدأ كيفو الحديث مذكرًا إيانا بأن بمكان لن نستطيع الخروج منه، ويستحيل الاتصال بأحد لنجدتنا.
إذن علينا أن نحاول التمسك بالبقاء لأطول فترة ممكنة.
كان يتحدث وكأنه متمرس.
علينا بالحفاظ على الطعام والماء قدر المستطاع وقبلهم الحفاظ على هدوء أعصابنا.
وعدم التحرك بالسيارة للمحافظة على البقية الباقية من الوقود.
بالنهار يتم نصب خيمة للهرب من الشمس المسلطة على السيارة وبالليل يتم الاحتماء بالسيارة في محاولة لخطف بعض الدقائق في النوم.
وأهم من كل ذلك هي محاولة الحفاظ على التماسك النفسي؛ لأننا بدونه لن يكون لنا أمل في النجاة وسننهار مما سيعجل بنهايتنا.
كنا نسمعه ونحن مسلوبي الإرادة عديمي الرغبة بالتحدث لكلًا منا أحاسيس مضطربة، ولكننا لا نملك سوى الانصياع وراء حديثه؛

كان كل عقل منا يدور في حلقات مفرغة من التفكير، وتذكر ذكريات قديمة بل واستدعاء أُناس فارقوا الحياة.

حتَّى بدأنا نسمع خوار ثور يأتي من الأمام كان سمعة بدأ ينام.

مرت دقائق أخرى وبدأنا نعتاد الصوت أو أنه أصبح أقل حدة بفعل الصوت الذي كان يدور بأذهاننا.

فجأة وفي وسط هذه الأحداث تذكرتها بملابسها الفضفاضة، وعينيها التي تشع براءة عطرها الذي كان يسلب عقلي تذكرت حياتنا الذي رسمتها في مخيلتي.

من كان يصدق أنني سألتقي مها قبل لقائي بعائشة.

وهل من المحتمل أن النهاية تسبق البداية؟

كان شريط حياتي يمر أمام ناظري.

حين أدركنا الليل الثاني كان الأكل أوشك على النفاذ والماء أيضًا وكان ذلك نذير ببداية النهاية.

وكان الشيء الوحيد الذي بقى على حاله الخمر والحشيش.

عند اقتراب الموت تصبح جميع الكلمات التي تحس على الصبر هراء.

وما الفائدة من الكلام وأنا أرى الموت أمام ناظري.

وأي ميتة ليس هناك أقسى من الموت جوعًا وعطشًا وحرًا، ليس هناك أقسى أن تموت وحيدًا بعيداً عن أهلك فلن تجد من يبكيك حتَّى أصدقائك سيشعرون بما تشعر ويموتون كما ستموت.

جميع الكلمات لا تصف شعورًا ينمو بداخلك! بل يموت بداخلك.
كنت دائمًا أعجب بتلك الأناس التي تموت واقفة تموت وهي تضحك لا تهاب الموت، وكأن ليس لهم جذور تربطهم بالأرض دائمًا يرغبون بالطيران، وكأن ارتباطهم بالسماء أكثر من ارتباطهم بالأرض.
كم تمنيت عندما يحين موعد موتى أن أموت ضاحكًا لاعنًا الدنيا استقبل الموت بصدر عاري.
كم تمنيت تجربة الحياة الأخرى التي تأتي بعد الموت، ولكنني لمْ أتمنَ ذلك بعد اِرتباطي بعائشة كنت أتمنى تكملة حياتي معها.
كان الشيء الوحيد الذي يؤرقني أن جميع من سبقونا للحياة الأخرى لمْ يحكِ لنا أحدا منهم كيف تكون تلك الحياة هل هي عذاب أم نعيم أم نعيم بعد عذاب.
بدأ فتات الأكل لدينا ينتهي وكلما بدأ الانتهاء اِقتربنا أكثر من النهاية.
بدأ ضوء الشمس يسطع بالأفق، وكان من حسن حظنا أننا لسنا بفصل الصيف حيث أشعة الشمس تكون حارقة.
وكان سطوع الشمس يعني أننا لا بد لنا من مغادرة النعش الذي نرقد بداخله طوال الليل هربًا وخوفًا.
كانت الخيمة لا زالت منصوبة جلسنا بداخلها نتحسس نسمات الهواء.

لأنه الأقرب للواقع أو لأننا لا نملك سواه أو لأنه بدا لنا أنَّه المخرج الوحيد كنا كمن يتعلق بقشة في وسط البحر.
مرت الساعات بطيئة مملة لا نفكر. فقط ينظر بعضنا لبعض نظرات بلهاء عديمة المشاعر لا تحمل أي معنى كانت مجرد نظرات.
بدأ ضوء النهار يهرب من بين أيدينا ويحل بدلًا منه الظلام.
عندما تهبط الشمس لا بد للقمر أن يصعد لأنه لا بد للسماء من ساكن.
لا ينبغى أن تهرب الشمس، ويختفى القمر في نفس الوقت.
كنا نستعد للموت.
فقط كيفو ظل الوحيد المتمسك بخيط البقاء وأمل النجاة.
كنا جميعا نتكلم عن الموت، وفراق الأحبة وهو الوحيد الذب يتكلم عن ما سنفعله فور عودتنا سالمين من أين جاء بهذا الثبات؟؟
مع حلول الظلام، ورغم أن القمر ظل منيرًا إحسسنا بظلم رهيبة وسمعنا صوت عواء ذئب لمْ نكنْ سمعناه بالأمس!
هل هو صوت ذئب بالفعل أم أنه صوت الخوف بداخلنا؟
اِحتمينا بالسيارة مِمَّا جعل الظلام يزداد من حولنا، ولكننا شعرنا بأن الظلام بداخلنا أكثر وحشة.
مر وقت طويل ولمْ ينطقْ أحدانا بكلمة.

كان سمعة في حالة يرثى لها كان كمن يستعد للموت زائغ العينين ينظر للا شيء يتنفس بصعوبة كأنه لا يرانا أو يسمعنا.
كنت قلقاً عليه كنا نحاول اِستدراجه ليظل معنا، ولكنه فجأة وبدون مقدمات وحيث أن الهدوء يسود الخيمة بدأ سمعة بالكلام موجها نظراته للاشيء يتنفس بصعوبة.
- أنا عارف أني عملت حاجات غلط كتير بس مكنتش متوقع نهايتي تكون كده.
كانت نظراتنا تتجه ناحيته بدون قصد ولكننا تركناه يسرد ما بداخله لعله يهدأ لأن الحديث يصفي ما بداخلنا، ويجعلنا أكثر هدوءًا أكمل كلامه مسترسلًا وكأنه ما زال يحدث نفسه.
- أنا حاسس إن طول عمري حظي وحش!
كيفو متعجبا: حظ مين اللي وحش يا سمعة.
وعندما لاحظ تعجبنا من تلقايته أكمل حديثه:
- ما شاء الله يعني بس يا سمعة اللي المفروض يتكلم عن الحظ الوحش واحد زيي.
إنت عارف يعني إيه تنام على الأرض صيف وشتا يعني في الصيف الأرض بتطلع نار وفي الشتا تلاقي التلج خارج من البلاط.
كان يتحدث وكأنه يحادث نفسه أيضًا.
عارف لما يكون عندك ثمانية أخوة وأبوك وأمك وبتناموا في أوضتين وصالة؟

طب عارف كنا عايشين بكام في الشهر؟ كنا بنعيش بمبلغ أقل من مصروفك في الوقت ده.

عارف يعني إيه تكون ساكن في الدور الأرضي؟ يعني بتسمع كل الكلام والشتيمة اللي بتتقال في الشارع.

مش كده وبس لأ وأخواتك البنات كمان بيسمعوا الكلام ده، والكل ساكت أو مضطر يسكت لأنها حياتنا ومحدش له الحق يختار حياته.

عارف إحساس إن إبوك ما يكونش مثلك الأعلى لأن نفسك تعيش حياة مختلفة عن حياته.

عارف يا سمعة لما إنت كنت بتلعب كنت أنا فين؟ كنت بشتغل.

مرة كنت شغال صبي قهوجي ووقعت صينية المشاريب على الأرض عارف صاحب القهوة عمل إيه فيه؟

رمى كوباية الشاي عليا وستر ربنا إنها جت في ضهري مش في وشي وكمان خصم عليا تمن المشاريب.

ومرة اشتغلت بياع أنابيب وف أول يوم ضيعت أنبوبة.

جربت إنك تعيش طول عمرك شقيان وفاشل؟

أنا مش بحقد عليك لأنك طول عمرك خيرك عليا وأمك وأبوك خيرهم علينا.

فاكر يا إسماعيل لما كنت بتجيبلي هدوم بحجة إنها صغيرة عليك.

ووالدك لما شغل أبويا عنده بعد الظهر بمرتب كبير كانت برضه

مساعدة.
طب فاكر لما غيرت حياتي واشتريتلي تاكسي كانت برضة مساعدة.
عارف يا سمعة كانت أمنية حياتي إيه؟
كان نفسي تتجوز واحدة من أخواتي كنوع من رد الجميل وكمان عشان حياتنا تتبدل شوية.
طب جربت تشتغل سواق مع ناس مريضة نفسيًّا بتفنن تأذيك.
بدأ كيفو يزداد انفعالًا وقف وبدأ يصرخ وهو يركل الأرض بقدمه أنا الوحيد اللي حياتي كلها متلغبطة حتَّى لما اِتجوزت مكنتش سعيد.
تصحى الصبح تلاقي نفسك قربت من الأربعين تلاقي عمرك ضاع بدون فايدة شغال سواق، وكمان فقير متجوز واحدة ما بتحبهاش.
باختصار عايش حياة سيئة جدًا.
لكنك يا صاحبي ماشاء الله مولود في بقك معلقة دهب.
تعرف يعني إيه إنك شغال في ملكك؟
يعني الكل يطلب رضاك الكل يفتحلك باب العربية.
بدأ الهدوء يسود الخيمة بعد عاصفة كيفو.
قطع الهدوء صوت رخيم وكأنَّه يحدث نفسه أيضًا.
كان الصوت هو صوت عرفة.
يا أخي سبحان الله كل واحد بيبص للي في إيد غيره.
طب تعرف يا كيفو إن أنا كنت بحسدك طول عمري.

إنت ما شاء الله اِتربيت في حضن أبوك وأمك.
صحيح الأماكن ضيقة بس القلوب واسعة.
أبوك راجل مكافح مثل أعلى فعلًا كفاية تشوفه آخر اليوم راجع من الشغل مهدود وتحس إن تعبه علشانك إنت وأخواتك.
وكله كوم والست والدتك كوم تاني ست عظيمة فعلًا تقعد قدامها ما تعرفش بتجيب حنيتها منين وفي المواقف الشديدة تتحول لميت راجل.
وأخواتك الشباب رجالة فعلًا عارف يعني إيه يكون عندك أخ؟
لو أكبر منك بتحس إنه حماية وأمان بيكون دايمًا في ضهرك ولو أصغر منك بتحس إنه ابنك وإنه مسئول منك.
ويزيد على كده إخواتك البنات بسم الله ما شاء الله تربية وأخلاق طبعًا لأنهم صنعة أبوك ورزق أمك.
وأحلى من كل ده إنت.
ظروفك خلتك راجل بمعنى الكلمة بتشتغل من وإنت عيل تعرف تمن القرش وبتعرف يعني إيه عرق من زمان.
تعرف إنه كانت أمنية حياتى أتجوز واحدة من إخواتك بس اللي منعني إنت.
لأنك عارف حياتي كلها وعارف إني طول عمري وسخ.
فاكر لما إتقدمت لأختك عارف لو كنت وافقت كان زمان حياتي إتغيرت لكنك كنت زيك زي أبويا وأمي وظروفي كلها كلكم

اسكترتوا عليا إني أفرح أو أتغير للأحسن.
عارف كان نفسي أكون نضيف بس واضح إن قدري أعيش وأموت بالشكل ده.
بتكلم سمعة وإنت ما جربتش تعيش الوحدة ومش مقدر قيمة حضن أهلك.
ما جربتش تعيش زي الكلب لوحدك لو بردت بالليل مش هتلاقي حد يغطيك.
لو عاوز تعيط هتعيط لوحدك، ولو ليك نفس تضحك هتضحك لوحدك برضة.
إنت يا كيفو بتتكلم عن حياتك البائسة بس أنا شايفها أحسن حياة على الأقل عندك حضن أمك لما تكون متضايق ومخنوق بتترمي فيه.
لكنك عمرك ما جربت تتعيش لوحدك تعيش في مستنقع!
عارف يعني إيه أبوك وأمك يسافروا ويسيبوك طفل في إيد خدامة؟
يجمعوا فلوس بحجة تأمين مستقبلك وهما في الأساس بيضيعوا حياتك كلها.
شاب صغير عايش لوحده في شقة كبيرة وفلوس بتتبعت كل شهر فلوس كتيرة.
عشت حياتي كلها ملذات وبس.

بس واضح إن كل واحد بيطلع فيه جزء من والده وكأنها جينات.
زي ما أنت يا كيفو طالع شقيان وراجل لأبوك أنا كمان طالع لأبويا شارب من جيناته.
وفي هذه الأثناء خرج سمعه عن صمته صارخًا.
بقى كل واحد دلوقتي مش عاجبه حاله؟
حتَّى عرفة اللي عايش حياته بالطول، والعرض مش عاجبه حاله.
عرفة اللي بيشتغل شغلانه رايقة في بنك أجنبي.........................
كنت أستمع إليهم وأنا في حالة ذهول تام اِتضح لي أن الكل يحسد الكل.
هل أنا أفضل حالًا منهم؟
أم أنا الآخر أحسدهم على ما يملكون ولا أملكه؟
في حقيقة الأمر كنت مثلهم أحسد كل واحد منهم على ما بيده.
أسوأ ما في المواقف التي يشعر فيها الإنسان بنهايته إنها تخرج أسوأ ما فيه لأنها تخرج حقيقته.
لكنني لم أكن أتخيل أننا نحمل هذا الكم من المشاعر السلبية تجاه بعضنا البعض، ولكن ما يهم في ذلك فالمتبقى من العمر قليل.
ستموت مشاعرنا معنا، ولكن من المؤسف أن تموت بعد اكتشاف صورتك السيئة في عيون من أحببتهم.
أكمل سمعة حديثه قاطعًا حبل أفكاري.

- عرفة دلوقتي زعلان وإحنا كلنا كنا بنحسده على مجونه بنحسده على عدم تحمله للمسئولية.
عرفة: عمرك جربت إحساس الوحدة إحساس إنك بدون قيمة وبدون رسالة وبدون هدف.
كيفو: كان نفسي أعيش الإحساس ده فعلًا بس طول عمري مسئول عن ناس.
عرفة: أحمد ربنا يا أخي ده كفاية نعمة الأولاد نظرتك للأولادك بالدنيا كلها وإنت يا عم سمعة دلوقتي بقت حياة عرفة حلوة.
كان الليل بدأ بالنزول مِمَّا يعني حتمية اِنسحابنا لداخل السيارة للاحتماء.
وما إن دلفنا للداخل طل علينا الوجوم كان كلًا منا يهيم في عالمه يسرح بخياله يعيد ما سمعه من أصدقاء طفولته لأول مرة كلًا منا يرى نفسه بصورة أخرى.
أنا الوحيد الذي لمْ أتكلم وبالتالي لم يتكلم معي أو عليّ أحد.
ولكنني عندما سرحت بخيالي رأيتهم قالوا كل ما كان يجول بخاطري وإن طال الوقت أو قصر سيطولني حديثهم.
نفذ الطعام والمتبقى من الماء القليل، والنهاية تقترب.
وعندما تقترب النهاية يصبح كل شيء بلا ثمن.
لو معك من المال جبلًا ما نفعك في شيء.
كنت لا أشعر أنني أتكلم، ولكن أشعر أن الكلام يتساقط مني.

يا جماعة إحنا كلها دقايق أو بالكتير ساعات ونموت وبما أننا طلعنا اللي جوانا تجاه بعض أنا عاوز قولكم على سر خطير

- عارفين الكوابيس اللي كنت بحلم بيها سببها إيه؟؟؟؟

أنا كنت عايش حياتي كلها بطريق عادية جدًا لحد ما أبويا مات.

عارفين يعني إيه أبوك يموت؟

يعني فجأة تبقى بدون ظهر الأمان بيختفي من حياتك حصلتلي صدمة كبيرة جدًا.

ما أنقذنيش منها غير مها حبتها حب كبير أوي، وخصوصًا لما جابتلي بنتنا اللي ملت علينا الدنيا.

الدنيا كانت ماشية كويس جدًا الحاجة الوحيدة اللي كانت بتمغص عليا حياتي كانت هيا نفس الحاجة اللي بتديني أمل أكمل حياتي

كانت مها.

رغم أن كل ما فيها من مميزات كانت متطلعة جدًا.

وده شيء كان حاططني تحت ضغط رهيب دايمًا حاسس بالتقصير تجاههم.

عمري ما كنت بحب الفلوس بس أتمنيت أكون غني جدًا بسببها كان نفسي أحققلها كل أمانيها رغم تفاهه الأحلام دي.

إحساسك بالتقصير يخليك ولأول مرة في حياتك تبص لرزق غيرك، وتتمنى تكون مكانه.

مرت الأيام وحبي ليها بيزيد وطلباتها وتطلعاتها كمان بتزيد.
كانت في الأول بتدوب لما أجيب لها وردة أو شيكولاتاية ومع الوقت ما بقاش يعجبها حاجة.
ما زلت أتكلم وكأن الأحرف تتساقط مني من غير حول لي ولا قوة.
ولما ماتوا أغلى اِتنين في حياتي حسيت إن حياتي لازم تنتهي.
ولحظة ما كنت شايل حتة من قلبي ملفوفة بكفن أبيض زي قلبها، والناس شايلة مها كنت حاضنها جامد جدًا كنت ضاممها لقلبي أوي.
حططتهم تحت التراب بإيدي وأخدت عزاهم وروحت.
كل الناس سابتني لهمومي، ولما اِختليت بنفسي بكيت بكيت كما لمْ أبكِ من قبل.
بكيت لأني قتلتهم بإيدي!!!
كان لكلمة قتلتهم وقع على أصدقائي كالصاعقة.
لمْ تأتيني الجرأة للنظر في عين أحدهم ولكنني كنت أسمع صوت أنفاسهم يتصاعد.
- أيوه أنا قتلتهم.
كانت لازم تموت.
حطيت لها السم في العصير اللي بتحبه وأول ما تصحى م النوم بتشربه.

وما اعرفش إزاي البنت الصغيرة شربت منه؟
ساد الصمت المكان وكأننا في قبر ولم يقطع الصمت سوى صوت سمسم.
- ليه؟؟
- عشان خانتني الهانم كانت بتخونني.
أكمل سمسم مجادلتي أو محاولة جعلي أسترسل في الحديث.
- وإنت إتاكدت إزاي؟
- فضلت أراقبها وأسجل لها مكالمات لكن اللي مجنني إني ما وصلتش للطرف التاني.
ورغم إني موتها بكامل إرادتي إلا إني بموت كل يوم وكمان إيه ذنب البنت إنها تموت كده؟
كنت إتكلم وكانت دموعي تنساب على وجنتي وكانت الدهشة تعلو وجوههم!
ولأول مرة منذ وفاتهما أشعر براحة.
لا شك أنك عندما تبوح بأسرارك كأنك أزحت جبل من الهموم من على عاتقيك.
ولكن مع الشعور بالراحة كنت أشعر بخيبة أمل من صدمة أصدقاء الطفولة في.
وكعادة جلسات الاعتراف الكل يتكلم، وكأنه يحدث نفسه ينظر للاشيء والكلام ينساب من الشفاه.

ولكن لا يهم كلها دقائق وسيموت السر معنا.
مر وقت طويل لمْ يقطعه سوى صوت نحيب سمعة.
كان يبكي بصوت عالي كعادته، ولكنه كان يتكلم وسط البكاء والعويل.
بدأ يهدأ رويدًا رويدًا، وعندما هدأ تمامًا بدأ يتلوا قصته أو بالأحرى بدأ يتلوا سبب وجوده وموته بهذه الطريقة أو سبب العقاب الإلهى له.
أكتر واحد شوفته في حياتي بيعمل خير هوه أبويا كان راجل خير جدًا، دائم التصدق لدرجة إنه يمتلك أجندة مدون بها أسماء العائلات الفقيرة بالمنطقة، ويحرص على إرسال الشهرية لهم باستمرار كان يتكفل بهم.
ظل أبي مثلي الأعلى والقدوة تمنيت أن أمتلك قلبه، وعقله لم يصدمني فيه سوى مرتين فقط.
المرة الأولى عندما تركنا شبرا وانتقلنا للعيش في المناطق الفاخرة صدمت به وزاد من صدمتي مسحة الحزن التي حفرت نفسها في ملامح أمي.
تخيل مثلك الأعلى بيخون زوجته بنت الأصول، زوجته التي تحملته في جميع أحواله من أول طريق حياته عندما كان عامل حتَّى أصبح ما هو عليه ولكنني تجاوزت الصدمة عندما بدأت أكبر وأعرف اِحتياجات الرجال وإن لجميع الرجال لحظات ضعف

منهم من يتغلب على هذه اللحظات ومنهم من يضعف.
ولكن ما لبثت إن تعرضت للصدمة الثانية الأشد والتي كسرت ظهري.
كان كلًا منا يفكر في اتجاه مختلف عن الآخر، ولكن ما كان يسيطر على عقولنا إنها دقائق ويسدل الستار على حياتنا جميعًا وعندما يحين الأجل تصبح الأسرار مهما عظمت تافهه.
كانت الصدمة عندما بدأت أصير رجلًا أخذني والدي لأول رحلة خارج مصر.
ذهبنا للبنان وهناك وسط الجبال والثلج وجو بيروت البارد فوجئت بمثلي أعلى وعرفت حقيقة ثروتنا الكبيرة.
إن والدي تاجر الذهب العظيم صاحب السيرة العطرة وصاحب اليد العليا على الفقراء.
عرفت إنه تاجر مخدرات متمرس يختفي خلف ستار تجارة الذهب، وكان حريص أن أتعلم مهنته وأكمل ما بدأه.
أحسست أني مسلوب الإرادة أسير خلفه.
تعلمت مهنته وأجدتها حتَّى ذاع صيتي وتفوقت على معلمي، وعندما مات أبي اِستكملت مسيرته.
كنت أسافر لأنهي صفقات المخدرات تحت ستار الذهب، وكنت أصطحب معي مشيرة كستار أيضًا.
عارفين إن معاكم واحد من أكبر تجار المخدرات في مصر؟؟!!

كانت بحق صدمة كبيرة من يصدق سمعة الذي لم يدخن أبدا نكتشف إنه ليس تاجر مخدرات فقط، ولكنه من أكبر تجار المخدرات.

كنا كتماثيل تسقط وتتحطم فجأة أصبحنا عراة.

مرة أخرى ساد الصمت لفترة هدأ سمعة، وتمالك نفسه ولكن ما زال صوت أنفاسه يتهادى.

من كان يصدق أن سمعة تاجر مخدرات أحسست أنني في حلم كان وقع الصدمة عليّ شديد، ولكن من المؤكد أنهم أشد صدمة مني لأنه من كان يصدق أنني قاتل.

كان على أحداهما استكمال ما بدأناه.

ومن وسط عتمة السكون خرج الصوت الساكت سمسم.

- طبعًا كل واحد فيكم شايف نفسه أسوأ إنسان!

كانت أنظارنا تتجه صوب سمسم الذي أحسست لأول مرة أن وجهه يميل للإصفرار يبتلع ريقه بصعوبه عيناه تزيغ صوت دقات قلبه يعلو.

أيقنت أن خزائن أسراره على وشك الانفتاح كان يتكلم بهدوء دون بكاء أو نحيب.

- أنا طول عمري عارف إني أوسخ واحد فيكم لكن بعد اللي سمعته منكم أنا بالنسبة لكم ملاك.

أنا مش هتكلم عن المأسأة اللي بعيشها كل يوم واللي إنتوا أكيد

حافظينها معايا.
بس هقولكم إن ستر ربنا بيغطينا كلنا لكن إحنا بإصرارنا على المعصية بنكشف ستره سبحانه.
كانت سمسم يتحدث، وبدأ صوته يعلو وقد اِحمرت عيناه.
-عارف يا أدهم إنك أغبى بني آدم شفته في حياتي.
كانت علامات الدهشة تملئ وجهى، وكان سمعة موجود معنا جسدًا فقط أما عبد الفضيل فكان يشاهد ما يحدث بتركيز كبير ولكن لماذا يتهم سمسم بالغباء؟
استكمل حديثه:
حبيت عائشة؟
عاوزك تعرف أن عائشة مش عائشة!!!
عائشة دي من صنع إيديا واحدة أعرفها حولتها لنسخة من مراتك الله يرحمها.
لبستها لبسها، وخليتها تتكلم زيها حتَّى البرفان بتاع مراتك استعملته.
- كنت أسمعه ولا أنطق كنت أشعر وكأن دومات البحر تدور في رأسي.
ولكن لماذا فعل هذا؟
كان سكوتنا يستفزه للاستمرار.
بصراحة كنت شاكك إنك قتلتها وكان نفسي أتاكد.

ولكن استوقفنى لماذا كان يشك في رغم أن الشرطة نفسها برأتني.
وأيضًا من أين عرف البرفان الخاص بها؟
وعندما واجهته بشكوكي انفجر في.
يا غبي اِفهم مها عمرها ما حبتك مها كانت بتحب نفسها وبس.
لم أتمالك نفسي ووجهت له لكمة أفقدته صوابه واستفزته للاستمرار أكثر في إيذائي!
على فكرة أنا الشخص اللي كنت بتدور عليه عشان تقتله هوه كمان.
أيوه أنا اللي كنت بكلم مها.
بس عمري ما لمستها وهي اللي كانت بتحوم حواليا.
بس أنا كنت صاين العيش والملح.
هي كانت بتكلمني عادى وبتحكيلي أد إيه إنت ممل وأد إيه نفسها تخرج وتتفسح وتسافر وإنك مش قادر تحقق لها ده.
- اسكت اسكت.
-لأ مش هسكت لازم تعرف الحقيقة كلها.
- بقولك اِسكت حد يصدق إنك تخوني؟
- يا غبى أنا عمري ما خونتك.
إن الصداقة كالإنسان يبدأ صغيرًا ومع مرور الوقت يكبر وينضج ويزداد قوة حتَّى يصيرا فتيًّا ثمَّ في مرحلة أخرى يشيب ويشيخ وأحيانا يموت.

كان لكل ما تمثال في عيون أخوانه، ولكن تهشمت التماثيل وصارت فتات لا تمثل شيئًا بمفردها.
من كان يصدق أنني قاتل وسمع تاجر مخدرات وسمسم خائن.
من كان يصدق أن كيفو هو أنظفنا.
كان كيفو طوال الوقت كتابًا مفتوحًا، ولكنه كتابًا أبيض الورقات كتابًا نظيفًا بحق.
مرت الساعات التالية في صمت كالقبور.
كانت قوانا تخور أو خارت بالفعل.
جوع وعطش وصدمة وإرهاق وفقدان الأمل في النجاة.
كان تفكيري يدور في أشياء ثلاثة.
كلها ساعات ويموت رباعتنا فهل عندما نتقابل في الآخرة كيف سنتعامل مع بعضنا!
وعندما أقابل مها ماذا سأقول لها.
عندما يعلم جميع الخلائق يوم الحشر أنني قاتل زوجتي وابنتي ماذا سأقول؟
كانت الشمس في كبد السماء ولكننا ما زلنا بالسيارة لا نقوى على النزول صوت أفكارنا يصرخ، ولكن بدا لي أن صوتا بالخارج يصرخ ويقترب ويعلو.
نرت من النافذة ففوجدت طائرة تحلق قريبًا منا تكاد تتوقف فوقنا.

فتحت باب السيارة بصعوبة فوقعت منها كنت في حالة إغماءة. ولكنني وجدت فيما وجدت الطائرة تهبط وتهبط منها مشيرة وهي تشير ناحيتي، وتصرخ وحينها دخلت في حالة إغماء.
لم أشعر بشيء
كنت في حالة غيبوبة، وكأن دقت بيني وبين الحياة بستارة تمنع الرؤية.
مر وقت لا أعلم أكان طويلًا أم قصيرًا.
أفقت من غيبوبتي لأجدني ممددًا على سرير بمستشفى.
علمت فيما بعد أن مشيرة زوجة سمعة استأجرت طيارة إسعاف، وظلت تبحث عنا حتَّى وجدتنا ونقلنا للمستشفى وتمَّ إسعافنا وأننا مكثنا بغيبوبة ما يقارب اليومين.
ولكننا أفقنا وعندما نهضنا لننصرف من المستشفى تقابلنا.
ظللنا ننظر لبعضنا البعض طويلًا ولكننا كنا لا نرى بعضنا.
لقد أصبحنا في حياة بعضنا سراب حلم تحول كابوسًا!
لن نستطيع نسيان لحظات الصدق والاعتراف.
كانت لحظات الصدق تمر كأنها شريط أمام ناظري.
أحسست وقتها أن الصداقة ماتت!
وارتعبت من فكرة كيف سأعيش دونهم ولكن العيش دونهم أفضل من العيش معهم!

مسار
للنشر و التوزيع

01020439639